

حوار بين قديفتين

اسم الكتاب	:	حوار بين قذيفتين
تأليف	:	د. عاطف سلامة
تنسيق داخلي	:	نسيمة رزين
تصميم الغلاف	:	إسلام تلي
لوحة الغلاف	:	تيماء سلامة
اللوحات الداخلية	:	تيماء سلامة/توبي ميلمان
رقم الإيداع	:	2026/13641
الترقيم الدولي	:	978-977-835-123-1
الناشر	:	اسكرايب للنشر والتوزيع بالتعاون مع أدابيا

للتواصل معنا

 scribe20199@gmail.com

 +201005079256

 +201099727510

  دار اسكرايب للنشر والتوزيع



جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار اسكرايب للنشر والتوزيع

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة

بأي شكل من الأشكال

ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

حوار بين قذيفتين
"قصص قصيرة"

د.عاطف سلامة

طبعة أولى 2026

تنويه :

هذه القصص ابنة الخيال، نسجت من ظلال الحروف واتساع المخيلة، وما قد يبدو فيها من تشابه مع أسماء أو أمكنة أو وقائع حقيقية، ليس سوى صدفة عابرة. غير أن الحياة، في غرابتها، كثيرا ما تشبه الأدب؛ لذا قد يجد بعض القراء بين السطور ملامح حكايات عاشت فعلا، لكن بأسماء أخرى وفي أمكنة أخرى.

إهداء

إلى روعي الشهيدين:

الصديق الشاعر سليم النفار

والصديقة الشاعرة ميسر عليوة

اللذين بقي صوتهما حيا في القصيدة والذاكرة

رأسه بيت للناموس

كان الليل هادئاً، أو يبدو كذلك... لكنّه لم يكن هادئاً أبداً في أذني سامر. سامر، ابن الثانية عشرة، يرقد على الفراش الإسفنجي القديم في زاوية خيمة بيضاء مهترئة. كان جسده ساكناً، لكن عينيه لا تنامان، ووجهه يرتجف بين لحظة وأخرى. في كل مرة يسمع فيها طنين الناموس، كان يظن أن الحرب قد بدأت من جديد.

همس لأمه بصوت مبجوح: ماما... في وحدة منهم دخلت جوّاً راسي... أنا حاسسها... بتضرب جناحها جوّه، جوّه!

اقتربت أمه، أمسكت رأسه بكفيها المتعرّقتين ومسحت جبينه بكمّ قميصها البالي: مفيش شي، حبيبي... نام، أنا قاعدة جنبك.

أغلق عينيه، لكنّ الصوت عاد: الناموسة... الطنين... ثم الغوص في رأسه... ثم الصدى.

شهق فجأة: يمّا! يمّا!! طلّعها! طلّعها من راسي! رجعت تتخبّى جوّه، جوّه راسي... وقاعدة بتطنّ، وبتضحك عليّ!

ثم انفجر باكياً، بلا يدين، بلا حول، بلا وسادة يحشوها في أذنه، بلا أصابع تبعد الموت الطائر.

سألها بعد نوبة صمت قصيرة: ليش ما عندي إيدين؟ ليش أنا؟ كانت قد سمعت هذا السؤال من قبل، آلاف المرات، في عينيه، في نومه، في ارتعاش فمه.

ردّت بصوتٍ اختلط فيه الحزن بالعجز: لأن الحرب ما بتسأل حدا...

ثم أضافت، تكاد تبكي: بس انت بطل... سامر الشجاع، اللي الناموس بخاف منه!

ضحك ضحكة قصيرة، لكن الصوت عاد... أقرب... أشرس... أشبه بصاروخ صغير، لا يرى.

أغمض عينيه وحاول أن يتحمل... لكنه لم يستطع.

-يمّااااا... أنا سامعها جوّه دماغى! يمكن ناموسة كبيرة... يمكن مش ناموسة، يمكن طيارة صغيرة!

ثم شفق وهو يرتجف: يمكن الطيارة رجعت! يمكن بدهم يكملوا عليّ! اقتربت الألم منه أكثر، ضمّته بذراعيها، وقد صارت يداه جزءاً من جسدها.

قالت له وهي تهدده: هاي مش طيارة... هاي بس ناموسة... وما دخلت جوّه، هاي حوالينا، وأقسمك إذا قريت، أنا لحالي رح أعضها! ضحك رغم الألم، ثم قال بتهيدة موجوعة: بس أنا... أنا حتى ما بقدر أهشها!

وصمت لحظة قبل أن يكمل: أمي... أنا مش خايف من الناموسة... أنا خايف إنها تدخل راسي وما تطلع، وتصير تعيش فيه لحالها... وتنسى تطلع.

أجابت بهمس مرتجف: ولا ناموسة بتقدر تسكن جوّه قلبك يا سامر... جواك نور، ومكان النور ما يعيش فيه إلا السلام... صدّقني، رح يجي يوم ما تخاف، لا من طيارة، ولا من ناموسة.

نظر إليها طويلاً... ثم أغمض عينيه، وأذنه ما زالت ترتجف، لكنه هدأ قليلاً... فقط لأن صوت أمّه، في تلك الليلة، كان أعلى من صوت الناموس.

منفى الرأس

مرّ الليل بطيئاً، كأنّه يسير على عكازين بين عيون سامر المفتوحة. صمّت الخيمة كان هشّاً، يقطعه طنينٌ يتكرّر... لا أحد يراه، لا أحد يعرف من أين جاء، لكن سامر يعرف. يعرفه كما يعرف رائحة الدم التي التصقت بذكرته بعد القصف، وكما يعرف شكل يديه حين كانتا ما تزالان هناك، تلوّحان للهواء وتصفقان للحياة.

في ذلك الصباح، قال لأمه بصوت متعب: ماما... يمكن راسي مش راسي.

سألته: شو يعني؟

-يعني... أنا بحس حالي مش جوّه راسي... بحسّني غريب فيه... زي كأنّي منفى.

سكتت الأم، تفرّست في وجهه، كان صوته أكبر من عمره، ووجهه أضيق من الألم.

تابع بصوت منخفض، كأنّه يحكي لأحدٍ في داخله: كل ما بسمع الناموسة... بتذكّر صوت الطيارة، والصاروخ، والصريخ... بعدين، بسمعش شي... بس بحس رأسي وكأنّه بيصير كهف، والناموسة جوّاه... بتدقّ على الجدران... بتدقّ على روحي.

قالت أمه تحاول أن تُغيّر مسار الحديث: بتحب نحكي عن إشي حلو؟ عن إشي مفرح؟

ردّ بنبرة شبه ساخرة: أنا بقدرش أزعل من الحزن... لأنه صار صاحبي. كل يوم بيجي، بيقد جني، وبنحكي مع بعض.

صمتت الأم، شعرت أن ابنها لم يعد طفلاً، بل يتحول شيئاً فشيئاً إلى ظلّ ثقيل يحمل العالم فوق رأسه.

لكنه استدار نحوها فجأة، وقال: ماما... بتعرفي شو نفسي أعمل؟ -شو، قلّي؟

-أركض... بس مش ركض طبعي... أركض وأنا بأهش الناموس عن راسي... بإيدين كبار... أركض وأضحك... وأطير... أطير أسرع من الطيارة... أسرع منها بكثير!...

بدأت دموع الأم تتجمّع في مقلتيها، لكنها ابتسمت وقالت: وأنا نفسي أشوفك بتطير... والله لو أقدر، لأعطيك جناحي.

ردّ بسرعة: لا، ما بدي جناحك... بدي إيديّ! إيديّ أنا... بدي أشعر بالهواء وهو يضرب كفوفي... بدي أحط إيدي على أذني لما الناموسة ترجع... بدي أنام وأنا مطمّن إنها مش رح تلاقيني طريق جوّه راسي. وبكى.

هذه المرة، لم تقل له "أنت بطل"، ولم تقل "لا تبك". فقط، اقتربت، ووضعت جبينه على صدرها، وتركت الدموع تنزل كما هي، بلا تأويل، بلا دروس، بلا شعارات.

نام بعد قليل، وبقيت هي مستيقظة... تراقب رأسه الصغير، الذي صار أكبر من السماء... وتفكر: "كيف أبعد الناموس عن روحٍ لا تستطيع أن تهشّ حتى خوفها؟"

طريق العودة من رأسي

نام سامر، لكن النوم عنده لم يكن راحة... كان معبراً سرّياً إلى كوابيس لا يُغلق.

رأى نفسه يمشي في ممرّ طويل، جدرانه من لحم، وسقفه سماء رمادية تخر منها طائرات صغيرة... ليست من حديد، بل من جلدٍ حيٍّ، ينبض ويصرخ.

صوت جناحي الناموس، في الكابوس، كان كقرع طبول قرب أذنه، يزداد كلما مشى.

رفع يده ليهشّه... لا يد.

رفع الأخرى... لا شيء.

نظر حوله، فرأى أطفالاً مثله، يمشون بلا أيدٍ، رؤوسهم مفتوحة من الأعلى، والناموس يدخل من هناك، ويغلق الأغشية بإبره.

صاح: ليش؟ ليش أنا؟ ليش دخلتوا جوا رأسي؟

ضحك أحدهم، طفل بوجهه وجهه هو، نسخة منه تماماً، وقال: إحنا ما دخلنا... إنت اللي فتحت الباب.

ركض... أو حاول أن يركض، لكن قدميه التصقتا بأرض الممر، تحولت إلى طين، والطين إلى دم.

ثم ظهرت الطائرة. صغيرة... بحجم كفّ، لكنها بصوت يهز الأرض.

قالت له بصوت امرأة عجوز: بدّك تهش الناموس؟ ما بتقدر...

-بدك تسكّر ودانك؟ ما تقدر...

-بدك تطلع من راسك؟ راسك صار بيت إلنا.

صرخ سامر في الحلم: بس هذا رأسي! إلي!

ردّت الطائرة: مش من يوم القصف... من يوم الخوف.

من يوم ما صدّقت إنك وحيد.

ثم أطفالُ السماء نورها... فجأة، صار ظلام مطلق.

في الظلمة، رأى يدين... يداه. لكنهما معلقتان في الهواء، لا تنتميان له،

فقط تتحركان ببطء، تهشّان الهواء، تبكيان دونه، تبحثان عنه ولا تجده.

صاح: استنّوني! أنا هان!

لكن اليدين طارتا بعيداً... واختفتا في سماءٍ بلا طائرات.

ثم سمع الصوت... الصوت الذي يوقظه كل مرة:

صوت طنينٍ رفيع، يتكاثر، يصير عشرات، يصير مئات، ثم آلاف... كلها

تدخل رأسه، كلها تقرأ أفكاره، كلها تعشش هناك، وتبني بيوتها من خوفه.

ثم... استفاق.

استفاق وعيناه تبحثان عن الضوء. عن أمّه. عن صمّتٍ لا يُطنّ فيه شيء.

-يمّا!!!!

جاءت تركض، عرفت من صوته أن الليل قد هجم عليه.

-أنا هان، أنا معك، شو صار؟

-إيدي... كانوا... كانوا...

-شو حبيبي؟

-كانوا بيطيروا... وكانوا بدهم يرجعوا... بس أنا ما لحقتهم!

ضمّته، وبدأ يبكي كما يبكي من رأى نفسه يُفَلت من يديه.
قال بصوت مخنوق: في شي جوّه راسي يا أمي... مش الناموس... في
شي تاني... يمكن خوف كبير... يمكن حرب ما خلصت.
قالت، وهي تضع يدها على صدره: الحرب خَلّت الكل يخاف... بس إحنا
مش بيوت للكوايبس، إحنا بشر... وراسك مش إلهم، راسك إلك... وأنا
معك.

تنفّس بعمق، ثم همس: طيب... بس لو ناموسة دخلت مرّة ثانية... ما
تخليها تعشّش، ماشي؟
ضحكت من قلبها هذه المرة، وقالت: بوعدك... رح أكون حارسة
راسك... ما حد بيدخلها إلا بإذنك.

الولد الذي فقد وجهه

في صباح اليوم التالي، كانت أم سامر تغلي الماء على موقد صغير قرب
باب الخيمة، حين سمعته يهمس: في ولد واقف برّا... بيطلع فيّا.
خرجت ونظرت، فرأته.
طفل في سن سامر تقريباً، لكنه يضع قناعاً أبيض من القماش، يغطي
وجهه بالكامل، إلا من عين واحدة، تنظر بخجل ثم تهرب.
نادته الأم بلطف: تعال يا حبيبي... بدك مي؟
لم يردّ، لكنه اقترب بخطى خفيفة.
حين دخل الخيمة، جلس بصمت قرب سامر.
قال سامر: شو اسمك؟
-جود.

-شو صار فيك؟

أجابه جود بعد تردد طويل: وجهي... راح.
لم يسأل سامر المزيد. فقط نظر إلى عينه الوحيدة، ثم قال: وأنا... راحوا
إيديي.

ضحك الاثنان بخفة، بمرارة، لكنها مرارة صادقة.

قال جود: أنا بخاف أطلع على وجهي بالمرآية... بحس حالي مش أنا.
رد سامر: وأنا بخاف أسمع صوت الناموس... لأنه بصير صوت جوّه
راسي، وبنسى أنا مين.

سكتا قليلاً، ثم سأل جود فجأة: بتقدر تحرك أصابعك بالحلم؟

هزّ سامر رأسه وقال: آه... بالحلم... برقص فيهم.

ابتسم جود، ثم قال: أنا كمان... بالحلم، كلهم بيشفونني حلو... وأنا ما
بخبي وجهي.

ثم أضاف وهو يلتفت نحوه: شو رأيك، بتحب نحلم سوا مرّة؟

رد سامر بعينين مفتوحتين: والله بحب... يمكن بالحلم أقدر أسمع
الناموس أغاني... يخاف ويهرب.

ضحك الاثنان... والضحك هذه المرّة لم يكن للهرب من الألم... بل كأنّه
نافذة انفتحت فجأة في جدارٍ ضخّم كان يغلق كل الضوء.

تغير الصوت

مرّت أيام قليلة.

لم تختف الكوابيس، لكن شيئاً غريباً بدأ يتغيّر.

في إحدى الليالي، سمع سامر الطنين... لكنّه لم يرتعب.

بقي ساكناً، وعيناه تحدّقان في سقف الخيمة.
همس لنفسه: لو كانت ناموسة، بقدر أتحمّل... ولو كانت طيّارة، في
أشياء أقوى منها: أنا.

ثم استدار نحو أمه التي كانت نائمة بجواره، وقال: يمّا...

-نعم، حبيبي؟

-مش خايف اليوم.

-عنجد؟

-آه... يعني شوي، بس مش زي قبل.

ثم صمت قليلاً، وأضاف: يمكن لما جود حكالي عن وجهه... فهمت إنّو
أنا مش لحالي، وإنه الخوف ما إله شكل واحد.
سألته:

-طيب، لو رجعت الناموسة اللي بتدخل راسك؟

رد وهو يبتسم لأول مرة بثقة: بحكي معها... بس مش بخوف. بحكي لها:
"هذا رأسي... مش فندق، إطلعي برا!"

ضحكت أمه، وضمتّه

قال بخفة: وبحكيها كمان: "فيه جود، وفيه ضحك، وفيه حلم... وإنّ
ما الك محل بيّا".

الولد الذي لا يتكلم

كان الجوّ خائفاً، الخيام متلاصقة، والشمس تسكب حرّها على رؤوس من
بالكاد يقدرّون على التنفس.

بينما كان سامر جالساً عند باب خيمته مع جود، لمح ولدًا صغيراً يمرّ كل صباح، وحده، يحمل ورقة مطويّة، ولا يتكلم.
سأل جود: مين هذا؟
- اسمه فارس... ما بيحكي ولا كلمة من يوم ما فقد أبوه.
- بيشوفني كل يوم... بس ما بيحكي.
- ولا رح يحكي... بس يمكن بيسمع.
في ذلك اليوم، اقترب فارس وجلس قربهم دون أن يطلب أحدٌ منه.
فتح الورقة ووضعها أمامهم.
كانت صورة بسيطة مرسومة بقلم رصاص: صبي صغير، يجلس في غرفة مليئة بناموس، لكنه يبتسم، وفي يده مروحة!
ضحك سامر بصوت عالٍ، وقال: هو شايف أفكاري!
التفت إلى فارس، وقال بحماسة: بدك نرسم وحدة سوا؟
أشار فارس برأسه بالإيجاب.
طلب سامر من جود أن يُحضِر ورقة، وطلب من أمه أن تمسك بالقلم بين أصابع قدميه، وساعدته.
قال: ارسم يا جود... أنا بحكيلك شو...
وبدأ يملي عليه: دائرة... جوّاهَا أنا... على راسي قبعة... وعلى القبعة شريط دوّار... بدل المروحة!
ضحكوا جميعاً، وفارس ابتسم.
في اليوم التالي، جاء فارس برسمة جديدة:
سامر، واقف فوق تل، وعلى ظهره جناحين من ورق، وفي السماء... لا طائرات، بل فراشات.

وضع فارس الرسمة في حجر سامر، ثم... قال كلمته الأولى منذ شهر:
-بدي أطير معك.
شهق جود. وصرخت أم سامر من الخيمة:
-قال كلمة!! قال!!
أما سامر، فقد ابتسم بهدوء... وضم الرسمة إلى صدره.

الاختراع

في المساء، سأل سامر أمه: يمّا... بتقدري تطلعيلي من كيس الخردة تبع بابا شغللات؟
-أي شغللات؟
-أسلاك، مروحة صغيرة، شوية كرتون، وكل إشي بينفع يكون جناح. جلبت له ما استطاعت.
بمساعدة جود وفارس، بدأ سامر يصنع شيئاً... شيئاً يبدو مضحكاً، لكنه كان كل ما يفكر فيه منذ ليالٍ.
ثبت المروحة الصغيرة في خوذة قديمة، وربط معها عصياً من البلاستيك، وعلّق فيها شرائط خفيفة.
ثم قال: هاي... قبعة "هشّ الناموس"، بس من دون إيدين. لما بتمشي، الشرائط بتهش عني، وإذا شغلت المروحة... بتصير العاصفة!
ركّبها على رأسه، وسار في الخيمة كأنّه روبوت، وهو يصرخ: احذروا... سامر الجديد، طارد الناموس الجوي!
انفجرت أمه بالضحك، وسقط جود أرضاً وهو يصفق، وفارس أخذ يلوّح بورقته القديمة كأنها راية انتصار.

وفي تلك اللحظة... لم يكن في الخيمة لا كابوس، ولا ناموس، ولا حرب.
كان هناك فقط:

طفلٌ بلا يدين... لكنه اخترع لنفسه سلاحًا.

ليس ضد الطائرات... بل ضد الخوف

رأسي ليس ساحة حرب

في المساء، هدأ الطنين. لا لأنّ الناموس غادر، بل لأنّ سامر لم يعد
يصغي له بالطريقة ذاتها.

جلسوا جميعاً في دائرة:

سامر بخوذته العجيبة، فارس برسّمته الجديدة، جود بلا قناع، وأم سامر
تخيط قطعة قماش على هيئة فراشة.

قال جود وهو ينظر إلى سامر: صرت تحكي غير زمان.

أجابه: كنت بسمع كل شي جوّا رأسي، وما كنت أعرف أفرّق بين صوتي
وصوت الخوف.

-وهلاً؟

-هلاً بعرف... لما يكون الصوت يقول "انتهيت"، هذا مش صوتي.

-طب شو صوتك بيقول؟

نظر سامر إلى السماء وقال: بيقول "أنا بدأت"... من جديد.

اقترب فارس، وهمس: وكمان بدأت تحكي.

ضحك سامر، ووضع خوذته على رأس فارس.

-خذها... دورك تطرد اللي بخوفك.

ثم التفت إلى أمه، وقال: يمّا... بتعرفي شو تعلمت من الحرب؟

سكتت، تنتظر كأنها تخاف من الجواب.
قال: إنها مش دايمًا بتكسرنا... مرات، بتفجّر جوانا شي كان نايم.
-زي شو؟
-زي إنك تقدر تحمي راسك... حتى لو ما عندك إيديين.
سكت الجميع لحظة... ثم بدأوا يضحكون.
ضحك بسيط، غير مصطنع... فيه نعمة حياة، وكأن القلب نفسه يضحك.
في الخارج، كانت الخيمة ترفرف قليلاً في الريح.
وفي الداخل، كان طفل بلا يدين... يحمل الآخرين، بكلمة، برسمة، بضحكة.
الرسالة لم تكن في عدد الأيدي، ولا الوجوه التي خبأتها الحرب.
الرسالة كانت: "نحن لسنا ما فقدناه... بل ما قررنا أن نكونه بعده".
وهكذا، غفت الخيمة، وهدأ الرأس.
وسامر؟
سامر لم يطرد الناموس فقط...
بل علّمنا أن الرأس، حين يُحمى بالحب والخيال، لا تعيش فيه الطائرات... بل الفراشات.

تمت.



معجزة في زمن الحرب

ضوء أسرع من ظل

كان البحر على يمينه يضرب الشاطئ بوجع يشبهه. وقف لؤي على طرف شارع الرشيد، يحدّق في امتداده الذي بدا كخيوط من نار يلتف حول رقبته .

منذ يومين، غادرت زوجته وأولاده إلى الجنوب، إلى ما ظنّوه أماناً مؤقتاً، وما كان له أن يتركهم، لولا أمّه التي رفضت النزوح. صوت أمّه يرنّ في أذنه:

"أنا انخلقت هان، وبموت هان. ما بدّي أترك الدار".

وبعنين زجاجيتين، قال لها وهو يخبئ دموعه خلف نبرة رجولة بالية: "برجعلك.. بس أطمّن على الأولاد".

لكن العبور لم يعد عبوراً. الشارع الذي كان شريان المدينة، أصبح مقصلة. لا سيارات. لا بشر. لا ظل. فقط طائرات، وقناصة، وعينٌ تترصد كل شيء.

تقدّم لؤي بخطى مترددة، يحمل كيساً صغيراً فيه صورة عائلته، قطعة خبز يابسة، وقلق. كل خمسين متراً، كان ينظر خلفه، ثم إلى الأعلى. الطائرات لا تُرى، لكنها تُحسّ، كأن السماء نفسها تراقب أنفاسه. فجأة، صوت في داخله تمرد: "يمكن وصلت العيلة، وهم مستنيين. ما لازم أخاف".

همس لنفسه وكأنّه يفاوض قدره: "بس أوصل لـ "تبة النويري"، كل شي سيكون أسهل".

ثم سمع صوتاً آلياً، بعيداً، يخرج من مكبر صوت. من طائرة كواد كابتر
لم يفهم الكلمات. لكنها كانت له. له وحده. وقف. لم يتحرك. قلبه دقّ
كأن فيه دفوقاً تنذر بالضرب القادم.

وفي اللحظة التي رفع فيها قدمه ليكمل الطريق، كان الضوء الأبيض
أسرع من ظله.

انفجر شيء. لا يدري من أين. لا يدري كيف .

فقط شعر أن جسده طار .

أن الأرض سقطت تحته .

أن صورة أولاده تطير في الهواء، تحترق، ولا تحترق.

الصمت المربك

لم يكن الوجد أول ما شعر به. بل الصمت .

ذلك الصمت المربك الذي يلي الانفجار، حين تصبح الحياة كلها على
هيئة طنينٍ طويل لا نهاية له.

كأن العالم انكسر، وانسكب على سمعه.

فتح عينيه ببطء. لم يرَ إلا الغبار.

غبار كثيف، كأن الرمال قررت أن تنتقم من السماء.

لم يفهم أين هو.

لم يفهم إن كان حياً أو لا.

"أنا... وين؟"

همس، ثم حاول أن ينهض.

جسده لم يطاوعه .

ساقه اليُسرى لا يشعر بها. يده اليمنى تنزف. كان الدم ساخناً على جلده، لكنه لم يكن يؤلمه.

ما ألمه هو الخوف.

كان يعلم أنه لم يمت. فالموت أكثر هدوءاً.

لكن النجاة؟ لا تبدو أفضل كثيراً.

من بعيد، كان يرى البحر، نفس البحر، لكن موجه الآن أكثر جنوناً، وكأنه يصرخ معه.

حاول الزحف. لم يكن يعرف إلى أين، فقط أراد أن يبتعد عن الدخان.

عن الطائرات. عن الشارع. عن الحرب.

ثم سمع صوتاً.

صوت طفل. لا، ليس طفلاً. شخص ما ينادي: "في حدا عايش؟ في حدا مصاب؟"

رفع رأسه بصعوبة، وصرخ بكل ما تبقى فيه من هواء: "أنا... لؤي... أنا هان!"

هرول الصوت نحوه. رجل نحيف، يرتدي صدرية إسعاف، وجهه ملطّخ بالتراب.

ركع بجانبه. وضع يده على صدره.

"لسه عايش، يا رب لك الحمد. خليك صاحي، خليك صاحي معي، يا خوي".

سأله لؤي بصوت مبجوح: "وصلوا؟ مرّتي وأولادي؟ وصلوا الجنوب؟"

أجابه المسعف وهو يربط جرحه بسرعة: "لسه ما يعرف، بس المهم نطلعك من هان. الوضع بخوف".

جاءت سيارة إسعاف، تشبه الخوف أكثر مما تشبه النجاة.

حملوه فيها كمن يحمل شظايا وطن، لا جسد رجل.
وفي داخله، سؤال واحد ينبض مع نبضه المكسور: هل سينجو ليعرف
الجواب.

في الممر الرمادي

الطريق إلى المستشفى لم يكن طريق نجاة، بل ممرًا رماديًا بين موتٍ
مؤجل وآخر محتمل.
في الخلف، كان صوت جهاز الإنذار الطبي في سيارة الإسعاف يضرب
بإيقاع غير منتظم.
كلّ دقّة، كأنها تقول: "أنت لست بخير، لكنك لست ميتًا بعد".
في المقعد الأمامي، يتحدث السائق والمسعف بخفوت: "لو لَقَطُونَا
الطّيّارات، بنصير إحنا كمان شهداء".
"والله لو ما وراه حدا، ما خطّيت هاي المجازفة .
بس قاللي إنه ورا عيلة نازحة، يمكن نلحقهم".
"كلنا ورانا حدا، بس الطريق إلها ثمن".
في الخلف، كان لؤي نصف واعٍ ونصف هذيان.
يرى وجوه أطفاله، لكن لا يتذكر أسماءهم بوضوح.
غادة؟ هل هذه زوجته؟ أم اسم ممرضة من ماضٍ بعيد؟
كانت الصور تختلط في رأسه، كأن الدم الذي يفقده يسحب معه ذاكرته
أيضًا.
وصلا مشارف مستشفى العودة الميداني في النصيرات.

مجرد خيمة-، تجري حولها إصلاحات - لا يليق بها اسم "مستشفى"، لكنها تحوي أنفاسًا تبحث عن الاستمرار.

حين أنزلوه، سمع امرأة تصرخ.

"ابني! ابني راح! وين الدكتور؟!"

والصوت الآخر، جافٌ كجدار إسمنتي: "ما في دكتور، روعي دورى على إسعاف ينقله مشفى ناصر بخان يونس".

نظر إلى السماء، كانت أكثر زرقة هنا، لكنه لم يطمئن.

سأله الممرض الذي بدأ بخياطة جرحه دون تخدير:

"اسمك؟"

ردّ بهمس:

"لؤي... لؤي يوسف أبو مهنا".

"عندك حدا هان؟"

"كانوا نازحين... مرّتي وأولادي... قبل يومين طلّعوا".

"اسمها؟"

"غادة".

"غادة شو؟"

"غادة سليم... معها ثلاثة صغار. عبود، لينا، وحمزة..."

ثم أغلق عينيه، وكأن استدعاء الأسماء أعياه أكثر من الألم.

الممرض كتب على الورقة اسمًا، ثم قال: "بنحاول ندوّر عليهم. بس طول بالك، في آلاف مثلهم".

آلاف مثلهم؟

فكر لؤي، والمرارة تُخيّط ما تبقى من قلبه: هل أصبحنا أرقامًا في قوائم النجاة أو الشهادة؟

هل صارت عائلتي "ملفًا يُبحث عنه"، لا وجوه أعرفها؟
لكن رغم كل شيء، رغم النزف والخذلان، كان هناك شيء صغير يشع
في قلبه:
أمل.
عنيد.
لا ينهزم.

لائحة الأسماء

مرت ثلاث ليالٍ على لؤي كأنها دهور.
في ركن الخيمة، كانت ضماداته تُغيّر، ولكن الجرح الأعمق ظل بلا شاش:
جرح الغياب.
كان يُراقب كل داخل إلى الخيمة، ينهض بجسده المكسور كلما لمح امرأة
برداء أزرق أو طفلاً يُشبه حمزة.
لكنهم يأتون... ويذهبون... وليس بينهم أحد يعرف غادة.
في الليل، جلس إلى جواره الممرض إياد، شاب لم يتجاوز الخامسة
والعشرين، يحمل في عينيه حزناً أكبر من عمره.
سأله لؤي بصوت خافت: "ما في جديد؟"
هز إياد رأسه: "اليوم وصلت دفعة نازحين من المنطقة الشرقية بغزة.
لكن ما كان اسم غادة بينهم".
ثم أخرج دفترًا صغيرًا، صفحاته مليئة بأسماء مكتوبة بخط متعجل.
"كل اللي وصلوا من شمال غزة بنسجل أسماءهم هان. يمكن تطلع لنا".
تصفح لؤي الدفتر بعينين جائعتين.

أسماء، أسماء، أسماء...

لكن لا "غادة سليم".

ولا "عبود".

ولا "لينا".

ولا "حمزة".

بل اسمٌ وحيد أوقفه:

"امرأة مجهولة الهوية، مع ثلاثة أطفال، نُقلوا بالإسعافات إلى مستشفى ناصر بخان يونس قبل أيام".

انكمش قلبه.

قال وهو ينظر إلى إياد: "مجهولة؟ شو يعني مجهولة؟"

تنهد إياد: "ناس بتيجي بدون أوراق، بدون حدا يوثقهم. مرات بتكون أم فقدت الوعي، أو أطفال ما يعرفوا حتى يحكوا أسماءهم".

لؤي حدق فيه، ثم هتف كمن وجد خيط النجاة: "لازم أروح على مستشفى ناصر بخان يونس. لازم أشوفهم".

قال إياد بتردد: "الطريق خطيرة... والمستشفى صاير هدف".

صرخ لؤي، رغم الألم: "حتى لو كانت تحت الركام، بدي أوصلها!"

في تلك اللحظة، دخل رجلٌ مُلثَّم، يحمل حقيبة من القماش ويهمس مع أحد المرضى.

ثم أشار إليه إياد وقال: "هذا أبو ناصر... بيهرب المصابين العساكر بين المناطق. إذا وافق، ممكن ياخذك".

اقترب أبو ناصر، نظر إلى لؤي نظرة صقر: "بتقدر تمشي؟"

"بزحف لو اضطرّيت".

"طيب، بكرة الفجر ننطلق... بس ما بأعرف... يمكن ما نرجع".

أوماً لؤي بعينين تضيئهما شرارة واحدة: "مش راجع بدونهم".

العبور الثاني

كان الليل في النصيرات أكثر سواداً من حبرٍ مسكوب على خريطة. لكن لؤي، وهو يتكئ على كتف أبو ناصر في الظلمة، لم يرَ الظلام، بل كان يرى وجوه أطفاله تلوح له من بعيد، كأنهم في نهاية النفق. قال له أبو ناصر وهما يخرجان من الخيمة متسللين عبر ممر ترابي خلفي: "رح نمشي على أطراف الطريق ، ما نقرب من شارع الرشيد... الرشيد صار مقبرة".

لؤي تمتم: "كان الشريان... صار المقصلة". لم يردّ أبو ناصر. تعودُ ألا يرد على الكلمات الثقيلة. المهم الآن أن يتقدّما. خطوة بعد خطوة، أقدامهم تُحدث أصواتاً مكتومة على التراب، والسماء خرساء.

مرّوا قرب جدارٍ محطّم، تناثرت فوقه ألعاب أطفال محترقة، وكُتِبَ مدرسي نصفه محترق، والنصف الآخر مشوّه بالدم. قال أبو ناصر: "قبل أسبوع، كانت عيلة هان. ما ظل منهم غير بنت صغيرة".

قال لؤي، وصوته يتكسر: "يمكن غادة كانت تمشي من هان...". ثم صمت، كما لو أنّ ذكر اسمها جهراً قد يجلب عليه اللعنة. اقتربوا من حاجز ترابي نُصب على عَجَل قرب القرارة بجوار منطقة التحلية، وكانت دبابتين تقفان حوله. أبو ناصر أشار له بأن يحني رأسه.

"هدنة مدتها ساعتين، و تنتهي قريب. إذا رصدونا، بنصير غبار".
زحف لؤي، رغم ألم ساقه، رغم الغرز، رغم كل ما تمرّق فيه.
كل شبر كان وجعاً، وكل وجع كان قرباً.
وأخيراً، حين لاحت مباني مستشفى ناصر من بعيد، ارتجف.
قال: "هاي هي... هان كل الأجوبة".
رد أبو ناصر: "هان كل المفقودين".
وقفا خلف سور متهدم، وراحا يراقبان الداخلين والخارجين.
المكان بدا كخلية نحل مذعورة، أصوات، دماء، نقالات، صراخ، ووجوه
حيرى تبحث عن أحد أو تُسأل عن أحد.
تقدم لؤي نحو أحد الأطباء، صاح بصوت مشروخ:
"غادة... غادة سليم... كانت مع ثلاث أولاد، قبل أسبوع أو أقل... حدا
شافها؟"
أجابه الطبيب وهو يواصل طريقه: "روح على الطرف الآخر، المبنى
القديم، أرشيف المصابين والناجين والشهداء هناك".
قالها وكأنه يوزّع أرقام انتظار، لا يوزّع مصائر.
نزل لؤي الدرج وهو يلهث، كأن كل درج يحمل فوقه شهقة.
في الممر الطويل، جدران إسمنتية، ضوء باهت، وامرأة تجلس خلف
طاولة عليها دفتر ضخم.
اقترب.
قال بصوت لا يشبه صوته: "بدي أدور على مرتي... اسمها غادة سليم.
ومعها عبود، ولينا، وحمزة".
نظرت إليه، سألته: "تاريخ الدخول؟"
"ما بعرف... قالو لي يمكن وصلت من يومين... أو من أسبوع".

قلبت أوراق الدفتر، ببطء.
ثم توقفت.
نظرت إليه.
قالت: "في غادة سليم. دخلت المستشفى مع ثلاث أطفال. كانوا في حالة
حرجة... وتم تحويلهم بعد يومين إلى المستشفى الأوروبي".
كاد يسقط.
"عايشين؟!"
"ما عندي خبر أكيد... بس ما في شي مكتوب عن شهادتهم".
ثم أضافت: "يعني... ممكن يكونوا بخير".
في تلك اللحظة، جثا لؤي على ركبتيه.
لا بكاء.
لا صراخ.
فقط تنهيدة... كأن صدره أفرغ سنواته كلها.
رفع رأسه.
همس: بدى اروح على مستشفى الأوروبي.

الطريق إلى الأوروبي

كان المستشفى الأوروبي أبعد من كل الجغرافيا، وأقرب من كل الحنين.
خرج لؤي من مبنى المستشفى القديم يحمل في قلبه شيئاً يشبه الحياة:
اسم مكتوب في دفتر، يفتح أمامه احتمالية النجاة.
سأله أبو ناصر حين التقاه مجدداً خارج المستشفى: "شو لقيت؟"

أجابه وعيناه تلمعان: "غادة كانت هان... ومعها الأولاد... حولهم للأوروبي".

قال أبو ناصر وهو يشدّ حقيبته على ظهره: "الأوروبي بين خان يونس ورفح! هديك حدود ثانية... بس ما دامك وصلت لهان، بنوصلها. نمشي مع الفجر".

مع أول خيط ضوء، كانا على الطريق الخط الشرقي لم يكن قريبا، ولم يكن آمنا. كانا يعبران بين أطلال، بين جثث لم تجد من يدفنها، وبين صمّ ثقيل يشبه ما بعد القيامة.

في المنطقة الشرقية، توقفنا عند امرأة عجوز تطبخ على نار حجارة. أعطتهما شايًا مرًّا.

قالت لهما: "وين رايعين بهالعجالة؟"

قال لؤي: "على الأوروبي... بدّي أشوف مرّتي وأولادي".

أومأت المرأة: "الله يرجّعكم لبعض. الحرب فرّقت الكل... حتى أحلامنا صارت لاجئة".

في المساء، وصلا مشارف الأوروبي.

هنا، كان الناس أكثر شحوبًا.

الهواء أثقل.

الأمّل أرقّ.

سألوا عن قوائم الجرحى.

دلّهم شاب على مدرسة تأوي نازحين، قال: "فيه عيلة وصلت قبل أيام...
الأم اسمها غادة، بس مش متأكد من الكنية. الأولاد كانوا تعبانين كثير".
ركض لؤي، رغم جرحه.
ركض كأنّ الأرض تسحبه نحوهم.

دخل ساحة المدرسة، يتلفت كالغريق.
ثم رآها.
كانت جالسة على حصيرة، ترفع بيدها قطعة خبز لحمزة الذي فقد بعض
وزنه، وتمدّ الأخرى لترتّب على رأس لينا.
وعبود، الأكبر، كان نائماً قربها كأنّه حارسها الصغير.
"غادة!"
صرخ.
رفعت رأسها، عيناها اتسعتا، والخبز سقط من يدها.
"لؤي؟!"
قامت، تعثّرت، ركضت إليه.
ضمّهما كما لو أنه يمسك الحياة بيده.
ضمّت وجهه بيدين مرتجفتين: "إجيت؟ كيف وصلت؟ كيف؟"
قال بصوت مبجوح: "المهم أنني وصلت. كنت أمشي على صوتك".
جثا على ركبتيه، وضّم أطفاله، واحداً تلو الآخر.
كانوا نحيفين، خائفين، لكنهم كانوا هناك.
وكان هو هنا.
في تلك اللحظة، لم يكن في غزة صاروخ.

ولا طائرة.

ولا قصف.

كانت فقط عائلة تمسك ببعضها، كأنها تلتحم من جديد في قلب الدمار.

ما بعد العودة

في زاوية الصف الثالث من المدرسة الإعدادية التي تحولت إلى مكان للنزوح، كانت غادة تُعدّ وجبة بسيطة: خبز يابس، بعض المعلبات، وابتسامة جديدة على وجهها.

كان عبود يركض خلف لينا في فناء المدرسة، وحمزة يحاول أن يصنع طائرة ورقية من كيس بلاستيكي ومضرب مكسور.

أما لؤي، فكان يجلس عند المدخل، متكئاً على عصا خشبية، يراقبهم كمن استعاد كل ما فقد.

قال له رجل مسنّ جلس بجانبه: "كنت مفكرك شهيد، يا لؤي. لما سمعت إنك طلعت على الطريق بعد ما أغلقوه، قلت: خلّص، ما راح يرجع".

ابتسم لؤي، وقال: "أنا كمان قلت هيك".

صمتا لحظة، ثم تابع لؤي بصوت هادئ: "بس يمكن... الله كان كاتب لي نهاية ثانية. نهاية ما إلها رائحة الموت، بل رائحة أولادي".

رد الرجل وهو ينظر نحو الأفق البعيد: "اللي بيرجع من بين الركام، بيصير شاهد. مش بس على الحرب، بل على قيمة الحياة".

في تلك الليلة، نامت غادة للمرة الأولى دون أن تبقي عينيها نصف مفتوحتين خوفاً.

نام الأطفال وقد تداخلت أصواتهم مع أحلامهم.
أما لؤي، فجلس طويلاً قرب باب الصف، يكتب شيئاً على ورقة كرتونية
ممزقة:

"هذا بيتنا الجديد، حتى لو كان غرفة في مدرسة.
أهم شيء أننا معاً. وهذا، في زمن الحرب، هو المعجزة".

تمت

لم ينتظرنى أحد

لم يكن الوقت ليلاً، لكن الضوء كان غائباً. كأن الشمس، مثلنا، قررت أن تُخلي المكان.

وقف سامر عند أول الحارة، والقلب يقرع كطبول الجنازات.

قالوا: أخلوا المنطقة فوراً.

قالوا: أمامكم ساعة.

قالوا: انها منطقة قتال خطيرة.

التفت إلى ندى، كانت تضم آدم بيد، وتشير لليان أن تلمّ لعبتها بيد أخرى.

قال لها: "أنا رايح أجيب سيارة من طرف الشارع، وبأرجع بسرعة... ما بتأخذ دقيقة".

أومأت.

ابتسمت.

لم تبتك.

كأنها كانت تصدّق أن هناك بعد هذه الحرب وقتاً لسيارة... وعودة... وركض.

ركض سامر، بقدميه لا بسيارة.

ركض وهو يسمع النبض يطرق رأسه كأجراس مهجورة.

ركض، وكل ما فيه يركض - صوته، ظلّه، خوفه، اسمه، صلاته.

ثم عاد.

عاد بعد عشر دقائق.

أو دقيقة.

أو عمرٍ كامل.

كان الشارِعُ صامتًا.

لكن الصمت لم يكن هدوءًا.

كان ركامًا.

والركام، حين يصمت، يعني أن تحته شيءٌ كان يتكلم.

أوقف السيارة على بعد مترين من بيته.

لم يجد البيت.

وجد اسمه مكتوبًا على الغبار: "هنا كان سامر".

هرع، لم يسأل أحدًا.

لم يكن هناك أحد ليسأله.

صرخ:

"ندى"!

"ليان"!

"آدم"!

لكن الصوت لا يخترق الحجارة.

والأطفال، حين يُقصفون، لا يُجيبون.

جثا سامر على ركبتيه أمام الفتحة الصغيرة التي كانت غرفة الجلوس،

المكان الذي قال فيه لندى قبل قليل: "رج أرجع بسرعة... جهّزي الولاد".

مد يده بين الحجارة، أخرج فردة حذاء زهري.

عرفها.

ليان كانت تحبّها، وتصرّ أن تلبسها دون جوارب.

رفع الحذاء إلى صدره، كمن يعانق ساقاً صغيرة لم تعد هناك.
"ندى..."

"لو كنتِ بتسمعينى... سامحيني".

(صوت ما، بعيد جداً، كأنه من داخل روحه، يرد:) "تأخرت، سامر".

ارتجف. لم يكن يتوهم الصوت.

ندى كانت داخله، تمشي فيه، تناديه كما كانت تفعل من المطبخ: "إياك تتأخر".

لكن التأخر هذه المرة، لم يكن دقائق.

كان حياةً كاملةً فات أوانها.

(يمد يده بين الردم، يبحث عن يدٍ، إصبعٍ، قطعة قماش، بقايا وجود) .
لكنه لا يجد إلا الغياب.

والغياب...

أكثر الأشياء حضوراً حين لا يبقى شيء.

جلس سامر على شفير الركام، كأنه يجلس على عتبة قبرٍ مفتوح.

الهواء ثقيل، لا يحمل سوى رماد.

كل نفسٍ يتنفسه يحمل ذرات من ندى، من ليان، من آدم.

من بيتٍ كان، ودفءٍ كان، وضحكةٍ كانت... وانتهت.

أخرج من جيبه هاتفه.

شاشته متشققة.

فتح الكاميرا، وجَّهها نحو الركام، همس: "ندى... أنا هان".

ضغط زر التسجيل.

"رجعت.
بس البيت مش هان.
ولا إنتِ، ولا الولاد...
بس أنا جيت، متل ما وعدتك".
صوته اختنق.
لكن الدموع لم تنزل.
دموع الرجال في الحرب لا تسيل... هي تختنق وتموت داخل عظامهم.

مرّت دقائق أو دهور، لا يعرف.
لكنه شعر بشيء يتحرك تحت يده.
نفض الغبار...
كانت صورة، مبتلة، ممزقة من طرفها.
ندى تضحك، وليان تمسك جديلتها، وآدم في حضنها.
قبّل الصورة.
لأول مرة، بكى.
"كنّا بدنا نروح سوا...
مش هيك اتفقنا؟"
ثم تهاوى.
نام أو أغمى عليه.
أو انسحب من هذا العالم قليلاً.

أفاق على صوت الجرافة، تنفث الغبار في صدر السماء.

وصوت رجل من الدفاع المدني: "فيه جثث لسه تحت، بس المنطقة غير آمنة. لازم نسرّع".

وقف سامر، كأن ساقيه خيطان.

اقترب أحدهم منه، وضع يده على كتفه: "أخي... إذا بدك تتعرف على الجثث اللي طلعتها، تعال معنا".

لم يتحرك.

قال بصوت مسموم بالحقيقة: "أنا ما بدي أتعرف عحدا... أنا بعرفهم، حتى لو صاروا تراب.

ندى... ريحتها لسه هون.

آدم... اللي صوته ناعم، لساته بقلبي.

ليان... لسه عم تضحك جوّاي".

اقترب الطفل الذي كان يلهو مع ليان قبل أيام. عيونه محروقة بالبكاء.

الطفل: "عمو سامر... ليان راحت؟"

نظر إليه سامر، ثم ابتسم.

ابتسامة الموتى الذين لم يموتوا بعد.

"ما راحت..."

هي بس سبقتنا شوي".

في مكان ما بين السماء والتراب، كان الركامُ يخبئ أسراراً، وأسماءً، وقصائد لم تُكتب.

لكن سامر، بعينه المحترقتين، كان يعرف كل شيء.

"لو عدّت في الزمن دقيقة..."

بس دقيقة...

كنت أخذتك بإيدي، يا ندى، وما رحّت أدور على شي".

(صوته الداخلي يتكلم الآن، حوار بينه وبين ندى، في صمت قلبه).

ندى: "ليش تركتني؟"

سامر: "ما تركتك، رحت أجيب لنا حياة".

ندى: "بس الحياة إجاها الموت قبلك".

سامر: "سامحيني"...

ندى: "مسامحك، بس تعال ، خليني أسرّح لليان، شعرها، لأنه دايمًا
بيوجعها لما أمشطو".

(ينظر سامر إلى السماء، لا طلبًا للنجاة، بل بحثًا عن ممر... ممر يؤدي
حيث ذهب ندى، ليان، آدم).

مرّت الأيام، لكن الزمن لم يمشِ.

كأن الساعة تعطلّت عند لحظة القصف، عند لحظة الصراخ، عند الحذاء
الزهري تحت الركام.

سامر لم يعد كما كان.

لم يعد أبًا، ولا زوجًا، ولا حتى رجلًا يحمل اسمه.

صار ظلًا يتجوّل في أنقاض المكان...

أو بقايا روح، تمشي على قدمين لا تعرف إلى أين.

وفي اليوم الخامس بعد القصف في مركز الإيواء، نام سامر على بطانية
من المعونات.

لا شيء عليه سوى صمت.
ولا شيء داخله سوى ندى.
صوت رجل يتحدث في الخلفية: "وزّعوا وجبات الأطفال... مين إله ابن
هان؟"

رفع سامر عينيه.
قال بهدوء: "أنا... ما إلي".
سحب بطانيته، وخرج.

في الليل، عاد إلى الحارة.
لم يمنعه أحد، لم يره أحد.
وقف عند الركام، كما يقف الناس عند القبور.
أشعل شمعة صغيرة، ووضعها حيث كانت غرفة نومهم.
همس: "ندى، اليوم آدم كان سيكون عمره سنتين ونص.
كنتِ رح عملي له كعكة بيضا، مثل ما كنتي بتحبي.
أنا ما بعرف أطبخ... بس جبت له قطعة خبز وحطّيت شمعة".
أخرجها من جيبه، شمعة صغيرة حمراء.

منذ أسبوعين وسامر يعمل مع فرق الإنقاذ.
يحضر مع الآخرين.
لا يتكلم كثيراً.
وجهه صار تراباً.
يداه صارتا معاول.

قال له أحد المتطوعين:

"ليش بتجي كل يوم؟ مش تعبان؟"

ردّ بصوت غائر: "أنا بفتّش عن أولادي... حتى لو ما عادوا أولادي".

قال له الآخر بحذر: "بس... ما في حدا من عيلتك بهالمنطقة، إحنا خلصنا البحث هان".

هزّ رأسه: "أنا بفتّش عن روحي".

في الليل، يجلس على حجر، يمسك دفترًا صغيرًا
ويكتب:

إلى ندى،

إلى ليان،

إلى آدم،

أنا لسه ضايل بأكتب، يمكن عشان إذا التقيت فيكم، تعرفوا إنو ما سكّنتني
الغياب.

أنا بأعلم كيف أعيش، بس مش عشان أعيش...

عشان أظّل أحبكم، بالصوت، بالصورة، بشمعة، أو حتى بكلمة نكتبها
عالحيط.

أنا مش حيّ، بس مش ميّت... أنا سامر، اللي رجع وما لقاكم، فصار يدور
عليكم بكل بيت مهدوم.

(في نهاية الورقة، يرسم بيد مرتجفة خريطة صغيرة - بيته القديم.

غرفته؛ مكان سرير ليان. ركن المطبخ حيث كانت ندى تغني. ومكان جلسة
آدم، تحت النافذة).

ثم يغلق الدفتر.
وينظر إلى السماء.
"لو في بيننا بريد...كنت بعث لكم قلبي".

مرّ شهر .
ليس على سامر وحده، بل على الركّام، على الصور المحروقة، على الدمى
المبتورة الأطراف، على البيوت التي لم تعد بيوتاً... بل أدلة جنائية صامتة
على ما فعله الغياب.
لكن سامر لم يعترف بالموت.
لم يوقّع على شهادة دفن.
لم يضع صورة على جدار.
لم يجلس لتقبّل العزاء.
كان يجوب الشوارع كمن يبحث عن شيء أضاعه للتوّ... لا منذ شهر.
وجهه شاحب، لحيته طويلة، ثيابه لا تشبهه.
عينيه... لا تنظران إلى الناس، بل إلى شيء بعيد، غائر في الهواء.
اقترب من مجموعة أطفال يلعبون عند ناصية الشارع.
جلس قربهم.
قال لواحد منهم، وهو يشير لفتاة صغيرة: "ليان... ليان! تعالي، بابا
هان!"
البتت نظرت إليه بخوف، ثم اختبأت خلف أمّها.
الأمّ صاحت به: "عمو، هاي مش بنتك! الله يشفيك..."
هزّ رأسه، كأنه فهم... ثم مشى مبتعداً.

لكنّه همس لنفسه: "ندى، ليان خجلانة اليوم... مش مثل العادة".

في السوق، وقف أمام عربة خبز.
نظر إلى البائع، ثم رفع عينيه فجأة وقال:
"ندى بتحب الخبز الطازج... خليلي خمس أرغفة، وأنا راجع بعد شوي،
بأخذهم أوصلهم..."
قاطعه البائع: "أخ سامر، إنت من وين جاي؟ ندى راحت من زمان..."
لكن سامر لم يسمعه.
كان ينظر خلف الرجل، إلى المسافة الفارغة.
ثم فجأة، ابتسم.

دخل مسجد الحيّ المهدم ، وصلى على الأنقاض منفرداً.
ركع مطوّلاً.
وفي السجود... بكى.
لكنّ بكاءه كان صامتاً، يشبه انهدام جدار داخليّ

وقف سامر في ليلة شتوية - في الخلاء، خارج المدينة، عند أرض قاحلة.
قال لرفيق قديمٍ وجده صدفة: "أنا متأكد إنهم هان."
ندى قالت لي البارحة إنها نائمة جنب الزيتون، ليان حطّت مخدّتها
بحضنها، وآدم صار يحبي ويضحك".

صاح به الرجل، يحاول إعادته للواقع: "يا سامر! هذول راحوا! ماتوا!
إنت لازم ترجع لحالك، تعيش!"
لكن سامر ابتسم.
ابتسامة لم تكن من هذا العالم.
قال بهدوء: "أنا راجع.
بس مش لحالي".

في الصباح اليوم التالي، عثر عليه الناس عند شجرة الزيتون العتيقة،
ملقى على جانبه، تغطيه بطانية ترابية، وعيناه مغمضتان على ارتياحٍ
غريب.
بين أصابعه كانت صورة قديمة: ندى تضحك، وليان تمسك جديلتها،
وآدم يلوح بكفه الصغيرة.
كان يحتضن الصورة...
كأنها مفتاح الباب الذي عبره أخيراً.

"ماذا لو لم يذهب؟"
"ماذا لو لم يتأخر؟"
لكن الحرب لا تعطي أحداً وقتاً للأسئلة، ولا تترك أحداً مع الإجابات.
سامر لم يكن مجنوناً كما قال عنه البعض، بل كان أكثرهم صدقاً مع
حزنه.

هو فقط لم يجد مكاناً يضع فيه كل هذا الفقد، فحمله على كتفيه، وراح يمشي... بحثاً عن ضحكةٍ، عن جديلةٍ صغيرة، عن "ندى" تناديه من المطبخ.

في الحروب، لا يموت الناس فقط بالقصف، يموتون حين يُجبرون على النجاة.

يموتون حين لا يجدون أسماء أحبائهم على قوائم الأحياء، ولا جثثهم بين الأنقاض، ولا حتى قبوراً يكون عندها.

سامر، في النهاية، لم ينكسر.

هو فقط قرر أن يلحق بمن كانوا صوته ودفنه وحياته.

لأن بعض الرحيل أصدق من كل البقاء.

وبعض الحب، لا يسكن الأرض.

هكذا...

صار سامر حكاية يُروى عنها في المخيمات، أن رجلاً عاد من طريق

النجاة، ليقيم في قلب الذاكرة، ويضع وردةً على ضريحٍ لا يراه أحد... إلا من فقدوا.

تمت



الحمالة الأخيرة

المطر والشهادة

كان المطر يهطل كأنه يبكي، والرياح تعصف بالأبواب والنوافذ، حين دوى الانفجار فجأة. صرخات تشق العتمة، ورائحة البارود تزاخم رائحة التراب المبتل. خرج مهند يركض، حافياً، بثوبه المنزلي، لا يكاد يصدق أن البيت المجاور قد صار تراباً.

"يا رب... يا رب، مش هو... مش هو!"

قالها وهو يركض.

وصل. لم يبقَ من البيت شيء. الركाम ساكن، لا يئنّ، لكن تحته... أخوه.

ركع على الأرض، يده تحفر الحجارة، يصرخ:

"أنس! يا أنس، جاوبني!"

"مهند... تعال، لقيناه"، صاح أحد الجيران.

كان أنس ممدداً، عينيه نصف مفتوحتين، وبقايا ابتسامة على وجهه، كما لو أنه ودّع العالم بهدوء.

بكى مهند، والشتاء لا يكفّ عن البكاء.

الحمالة الأخيرة

كان الجو لا يزال مبلولاً بالبكاء، السماء تمطر كأنها لم تتوقف منذ خلق الله الغيم. في الساحة الصغيرة أمام المسجد، وقف مهند محني الظهر، يضم عباته إلى صدره، ويمسح وجهه من المطر... أو الدموع، لا فرق. اقترب منه أبو عادل، شيخ المسجد:

"يا مهند... جينا الحمالة. الشباب جوا بيساعدوا".
"بارك الله فيكم، الله يرضى عليكم"، قالها مهند بصوت خافت متهدج.
دخلوا المسجد. وضعوا الجسد الملفوف بالكفن الأبيض فوق الحمالة
الخشبية. سُجِّي في سَكينة، كما لو أنه نائم قبل الفجر بدقائق.
صوت خافت سأل:
"نصلي عليه الآن؟"
"نستنى شوي؟ يمكن حد من قرايبهم يلحق؟"
"ما في حد... كلهم راحوا، أو نازحين".
نظر مهند إليهم، وقال بنبرة قاطعة:
"نصلي. الله أولى به من انتظار الناس".
كبر الإمام. وارتفعت أصوات التكبير، ممزوجة بحشجة بكاء مكتوم في
صدور الشبان الواقفين في صف الصلاة.
خرجوا بالحمالة، اثنين في الأمام، واثنين في الخلف، والريح تضربهم
كأنها تختبر ثباتهم. المطر لا يرحم، ولا هم طالبوه بالرحمة.
أحد الشباب، محمود، قال وهو يحاول تثبيت الكفن:
"لو نغطيه بشيء؟ المطر..."
ردّ سامي، من خلفه: "هو الآن في دفء الجنة، إحنا اللي بنتجمد".
وصلوا المقبرة. لا زغاريد للشهيد. لا خطب. فقط تراب، ومطر، وتكبيرات
متقطعة، يرتجف صداها بين القبور.
أنزلوا الشهيد برفق. قرأوا ما تيسر. وغادروا.
لكن مهند بقي واقفاً، والكل قد ابتعد.
اقترب منه سامي وهمس:
"يلا يا مهند... البرد بيسري في العظم".

ردّ مهند بنبرة لا تحمل دموعاً هذه المرة:
"برد الأرض أهون من نار الندم... ودّعت أخوي وما شبت من صوته".
ومشى أخيراً، والحمالة معهم... صامته، كأنها تعلم أن لها فضلاً آخر، لم
يُكتب بعد.

نار على خشب الجنازة
كان الليل في اليوم الثالث والأخير للعزاء قد أرخى سدوله، والريح تزار
بين الأزقة كذئب جائع. جلس مهند ومعه أربعة من الشباب في فناء
صغير مرهق، بالكاد يمد يده يتقبل العزاء بأخيه الشهيد بجوار مسجد
"الفلاح"، تفوح منه رائحة الطين والموت. كانوا يلتفون حول صفيحة
معدنية فارغة، بانتظار أي نار تُوقد فيها، تنقذهم من البرد الذي يسري
في عظامهم كسّم بطيء.

وبعد أن فرغ بيت العزاء من المعزين، قال محمود وهو ينفخ في كفيّه:
"ولا جمرة... لا حطب ولا فحم... حتى ورق ما ظلّ." صار لازم نشرب
كاسة شاي

سامي، بعد لحظة صمت: "في الحمالة..."

مهند رفع رأسه فوراً: "شو فيها؟"

"خشب. والحطب خشب."

ساد صمت ثقيل.

نظروا جميعاً إلى الحمالة التي أُلقيت عند الجدار، مسنودة كجسد أنهكه
التعب منذ ثلاثة أيام تقبع مكانها. كان المطر قد هدأ، لكنها ما زالت
مبتلة.

"يا جماعة..." همس علاء، "إنّو بتفكروا عن جد؟ هاي اللي حملنا فيها أنس".

"هو نفسه لو كان قاعد معنا، كان قال: اكسروني أنا كمان، بس تدفّوا." قالها محمود، محاولاً أن يبدو حاسماً، لكنه لم يستطع إخفاء ارتجاف صوته.

اقترب سامي منها، وضع يده عليها، تحسس الخشب المتآكل من الجوانب. "خشبها ناشف من جوّه، وببيدفي. نحرق نصها، نخلي جزء منها للدفن الجاي... إن صار".

"لا تحكي هيك"، قال مهند سريعاً، ثم تنهد: "بس... معك حق. الناس بتموت كل يوم".

تقدّم محمود، رفع الحمالة من طرفها، وقال: "مهند، بعد إذنك؟" نظر إليه مهند، بعينين مليئتين بالليل، ثم أوماً برأسه: "بس خذها برفق... هي آخر شيء لمسه".

بدأوا بتكسيروها. كل ضربة كأنها تمزق جزءاً من الذكرى. لكنهم أكملوا. وضعوا القطع في الصفيحة، وأشعلوها بولاعة متهاكة وسطر من ورق مصحوب بحشجة قلب.

ارتفعت النار خجولة أولاً، ثم بدأت تأكل الحطب بصوت خافت يشبه البكاء. ووضعوا أبريق الشاي على منصبتها جلسوا حولها، وجوههم تضيء وتظلم مع تراقص اللهب.

قال علاء وهو يمدّ يديه نحو النار:

"الدنيا غريبة... بندفي على اللي شيعناه".

رد مهند، وهو ينظر إلى الحطب المتفحم:

"وكلنا، في الآخر، حطبة... بس في ناس، وهم يحترقوا، بدفّوا غيرهم".

وسكتوا.

كان الصمت أدفأ من النار.

سرقة من مقام الموت

أمسى الشباب يرتشفون الشاي ويصدرون صوتاً يبعث على الدفء، وكان الجمر قد خفت، ودفء الحمالة صار رماداً. تمدد الشباب حول الصفيحة كأنهم حطب آخر أوشك على الاحتراق. لا حديث، فقط أنفاس ضبابية، وعيون نصف مغلقة. ثم نطقها سامي، فجأة، كمن تذكر كنزاً مدفوناً:

"في حمالة تانية... بمسجد المصطفى." المقصوف
"وين؟" سأل محمود متيقظاً.

"بجانب المقبرة القديمة، صنعوا مصلى من البلاستيك والقماش في الساحة الفارغة بجوار المسجد... فيها دكة كمان. دكة الغسل".
"غسل الموتى؟" قالها علاء، وقد ارتجف صوته.

تبادلوا نظرات سريعة، ثم ضحك محمود ضحكة مكسورة:

"شو يعني؟ ما هي كمان خشب... والموتى بردانين؟"

ردّ مهند، بعد صمت طويل: "الموتى بردهم في قبرهم... وإحنا بردنا هان.
بس..."

"بس شو؟"

"هاي الدكة... غسلوا عليها أنس".

انحنى رؤوسهم.

لكن البرد لا يرحم، ولا يُجيد الإصغاء. وحين تكون الروح بين نارين، تختار الأدفأ.

وقف سامي فجأة، شدّ غطاءه على كتفيه:
"أنا بروح".

"نروح معك"، قالها محمود، ونهض.

"ماشي، بس خلّوا واحد يظل هان يحرس النار"، تمتم مهند.
تسللوا تحت جنح الليل، بين الأزقة التي تعرف خطاهم، وصولاً إلى
مسجد المصطفى. كانت أبوابه مغلقة، لكن نافذة صغيرة في الساحة
الخلفية فتحت لهم الطريق.

تقدم سامي، كأن خطاه تحفظ المكان.
"ها هي الحماله..." همس.

وهاي الدكة".

اقترب علاء منها، مرر يده على سطحها المصقول بالماء والصابون
والموت.

"في ريحة مسك... لسه".

"ريحة الغسل الأخير"، قالها سامي، ثم أمسك طرفها:

"بس اللي غسلوا، راحوا. وإحنا في طقس تاني".

حملوها، الحماله أولاً، ثم الدكة، وخرجوا من المسجد كما دخلوا... خفاً،
مترددin، كأنهم سرقوا ظلاً من ضوء.

عند النار، كان مهند ينتظر، يمد كفه نحو آخر جمرة.
"جبناها".

"الانتين؟!"

"الانتين".

وقف مهند، نظر إلى الدكة، تأملها طويلاً، ثم همس:

"كل شيء في هالبلد بتحوّل... حتى مقدسات الموت".

"والموت؟" سأل سامي.
"صار وسيلة... مش نهاية".
بدأوا التكسير. أول قطعة صدرت عنها صرخة خشب، كأنها احتجاج.
لكنهم أكملوا.
ألقيت أول عظمة من الدكة في الصفيحة. اشتعلت.
قال محمود وهو يمد يديه: "لو الدكك بتحكي... شو كانت ممكن تقول؟"
ردّ سامي: "يمكن كانت تقول: موتي كان أنظف من حياتكم".
ضحكوا... ضحكة باردة، ممزوجة بالخطب والدخان.
ثم سكتوا، وواصلوا التدفئة على ركام الموت.

ضوء الصباح لا يغسل العار
كان الرماد لا يزال دافئاً، ومهند لا يزال مستيقظاً.
جلس وحده، بعد أن غفا الآخرون، حول صفيحة الحديد التي خبت نارها.
تساقط المطر مجدداً، لكنه صار ناعماً، لا يطرق الأرض بل يداعبها كندمٍ
متأخر.
تأمل الحطب المتفحم. عرف كل قطعة. هذه الساق الرفيعة من الجمالة
الأولى، تلك اللوح الطويل كان من الدكة، عليه جفّ دم أخيه .
رفع إصبعه بتردد ولمس الرماد، ثم مسح على وجهه... كأنه تبارك، أو
تكفير.
قال لنفسه بصوت لا يسمعه غير قلبه: "سامحني يا أنس. لو كنت عايش،
كنت أول من قال لي: اكسرها. لكن وانت ميت... أنا مش متأكد. يمكن
أخطأت. يمكن خنت خشبك".

أحنى رأسه. سكونٌ ثقيلٌ غطّى صدره، لا المطر يزيله، ولا النار تعيد توازنه.

وفجأة، صوت خطوات تقترب.

رفع عينيه. كان رجلاً بلحية رمادية ووجهٍ غاضب، عباءته مبتلة، وفي يده عصا. دخل الفناء بخطى حاسمة.

"مين فيكم مهند؟"

وقف مهند ببطء، دون أن يرفع صوته:
"أنا".

اقترب الشيخ منه، نظر إلى الصفيحة، إلى وجوه الشباب النائمة، إلى الرماد الذي لا يُخفي الحقيقة.

"مين سمحلكم تسرقوا من بيت الله؟!"

"ما سرقنا... استعرنا خشبًا نتدفى فيه. و..."

"استعرتوا؟! استعرتوا حمالتين؟! ودكتين؟! أربع قطع خشب لحمل وغسل موتى المسلمين؟!"

قاطعه مهند، مذهولاً: "أربع؟ إحنا... جينا واحدة من كل!"

"انسرق من كل مسجد حمالتين ودكتين. شو تفسرلي؟ الشياطين رجعت تكمل اللي ما قدرتوا عليه؟!"

تراجع مهند خطوة.

الشباب بدأوا يستفيقون، التفتوا نحو الشيخ وملامحه الملتهبة كالسعير.
قال محمود مرتبكاً:

"يا شيخ، كنا بنموت من البرد... ما كان عنا حطب... النار كادت تطفئ..."
"فأشعلتها بخشب الميت؟! بعزة جنازته؟! والله إنها أيام آخر الزمن!"
تقدّم مهند خطوة. وقف بين الشيخ وبين الحطب المحترق.

"يا شيخ، إحنا ما بعناها، ولا كسرناها للمتعة. إحنا... تدفينّا فيها، لأنه ما في سقف، ولا باب، ولا غطاء. احنا نازحين ، سامحنا، أو عاقبنا... بس لا تكبر الموضوع".

صمت الشيخ. نظر إلى عيني مهند، ثم إلى الأرض.
تنهد طويلاً.

قال، بهدوء مكسور:

"أنا لو كنت مكانكم... يمكن كنت عملت نفس الشي. بس المسجد مش محل للسلب، ولا للخذلان. لو جاءت جنازة بكرة، كيف ممكن نحملها؟!"
"أكتافنا، يا شيخ. بنحملها على أكتافنا".
هزّ الشيخ رأسه، وهمس وهو يغادر: "اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا".

وانصرف، وترك خلفه خشباً رماداً، وقلباً أثقل من النار.

تبرير الرماد

في اليوم التالي، كانت الشمس قد قررت أن تُظهر نفسها، لا دفناً بل فضولاً، كأنها تريد أن ترى ماذا تبقى في هذا الركام البشري. في نفس الساحة الموحلة بجوار المسجد، تجمع الشباب من جديد، لكن هذه المرة على مقاعد مكسّرة وأكياس فارغة، لا نار ولا رماد... فقط حكايا لم تبرد. جاء الشيخ من بعيد، بوجه أكثر سكوتاً من الأمس، وعباءة نظيفة، كأنها لم تشهد عاصفة الغضب السابقة.

قال سامي مرحباً:

"تفضل يا شيخ. اجلس معنا. ما ضل خشب نحرقه... بس الكلام عندنا دايماً مولّع".

ابتسم الشيخ بتردد، ثم جلس. فتح مهند الحديث، بصوت هادئ لكنه مشحون:

"شيخنا، إحنا آسفين عالي صار، والله ما كان قصدنا نهين المسجد. بس... شفت حال البلد؟ الكل عم ينهب، والكل ساكت".
"حتى اللي بيوعظ الناس، أحياناً بيضل ساكت"، قالها محمود وهو يرقب الشيخ.

تنحنح الشيخ وقال، كمن يُعيد ترتيب وجهه:
"الوضع سيء، ما بنكر. لكن... الحلال بيبقى حلال، والحرام حرام، كلاهما بين"

قاطعه سامي: "طيب احكيلنا، الحلال وين؟ التجار بيععوا تنكة الزيت بخمس أضعاف سعرها الأصلي. بتدخل مساعدات على البلد، بتسرق عالِدوَار، قبل ما تصل مستحقيها، موظفين بيتعاملوا بالربا، والناس بتاكل بعض عالخبز. في كثير تجار بيعسلوا إيديهم بدم الشعب الغلبان؟"
صمت الشيخ قليلاً، ثم قال: "كلامكم صح... لكن هذا ما بيبرر إننا نكسر دكة غسل الميت، ونولّعها نار، عشان نتدفأ ونشرب شاي"
"طيب يا شيخ..." قالها علاء وهو يمد يده من تحت عباءته، ويُخرج ظرفاً صغيراً، ناوله للشيخ برفق:

"هذا... بدل الحملتين والدكتّين. تبرع صغير. من شباب ما بيدخنوا، ولا بيشرّبوا، ولا سرقوا شي لحالهم... بس دفاهم خلص".
تردد الشيخ. نظر إلى الطرف، ثم إليهم. ثم تنحنح، ونظر إلى السماء. وأخيراً، أخذه. بخفة، تحسسه دون أن ينظر داخله.

"ما كان في داعي"...
ردّ مهند، مبتسماً بمرارة: "بس هيك بنظمن أننا نبرئ ذمتنا ، وإنك مش
راح تحكي مع حد عنّا".
هزّ الشيخ رأسه، وقال: "أنا ما حكيت. وما راح أحكي." وتحسس جيبه مرة
أخرى
ثم أضاف، بعد لحظة: "اللي صار... صار. وربك أعلم بالنيات. أنتم ما
كسرتوا الحمالة، أنتم كسرتوا برد الليل... والله رحيم".
نهض، مسح على لحيته، وقال: "رح أقول للناس إن الحملات والدكك
كانت مكسورة من الأصل... وإنها احترقت لحالها من شرارة بعد قصف
المسجد في المرة الأخيرة".
"وإنت عارف إنها كذبة..." قالها سامي وهو يبتسم نصف ابتسامة.
فردّ الشيخ، وهو يبتعد: "بس أحياناً الكذب أستر من الحقيقة... وأقرب
إلى الحكمة".
مشى وتركهم، والرياح خفيفة تحرك بقايا الرماد تحت أقدامهم. لم يكن
في الساحة نار... لكنهم شعروا بحرّ خفيف، كأنه خرج من الظرف، أو
من وجع لم يعد بحاجة لتبرير.

جنازة بلا كتفين

في ظهر اليوم التالي، امتلأ المصلّى المحاط بالبلاستيك والنايلون الذي
أقيم بتبرع سخّي، بجوار مسجد الفلاح بصوتٍ ثقيل... لا أذان ولا خطبة،
بل بكاء متقطعٍ لامرأة عجوز، تكاد العظام أن تخرج من وجهها ،
وصرخات خافتة لولد فقد أباه.

كان الناس يتجمعون عند الباب. جنازة جديدة وصلت.
رجل عجوز، سقط في الطريق ومات إثر المجاعة التي انتشرت في غزة،
وبدأت آثارها تظهر على الناس .. أقرباؤه أحضروه للمسجد ليغسلوه
ويشيعوه كما يليق.

اقترب أحدهم من حارس المسجد وسأله: "وين الدكّة؟ بدنا نغسل
الشهيد".

رد الحارس، وهو يهرش رأسه: "راحت. انحرقت من القصف"
"مين قال؟"

"الشيخ بنفسه قال: اشتعلت من شرارة القصف الأخير، وانحرقت لحالها،
وكمان كانت مكسورة من زمان".
تعالّت الهمهمات.

"مكسورة؟! والله كنت شايفها مباحر بشحمها ولحمها!"
"وانحرقت لحالها؟! يا زلمة خشب المسجد صار بيشتعل لحاله؟!"
"ومن متى في شرار جديد بالمسجد، إذا شفنّاها مكانها بعد القصف
الأخير؟!"
تكاثر الناس.

جاء شاب نحيف، بعينين تعرفان الحقيقة، واقترب من أحد الواقفين
وقال هامساً: "شفتهم. مهند وكم شاب. كسروا الجمالة، وحرقوها،
وجابوا الدكة من مسجد المصطفى كمان. بعيني شفتهم".
وصلت الكلمات للشيخ.

كان في طرف المسجد المقصوف، يعقد سبّحته، ويردّد أدعية لا يسمعها
أحد. تقدم إليه رجل في الخمسين، وجهه غاضب وعيناه مبللتان:
"يا شيخ... كذبت علينا؟"

"ما كذبت... أحفظ لسانك!

لا.. كذبت

حاولت أستر".

"تستتر على مين؟ على شباب حرقوا خشب الميت؟!"

"برد الليل... كان أقسى من ذنبهم".

"وانت شو عملت؟ أخذت منهم رشوة؟!"

"لا! هيك كثير عاد .. هاي أسمها صدقة..."

"صدقة من رماد؟!"

بدأت الأصوات ترتفع. المسجد امتلأ بعينين تشتعل فيهما نار غير التي
أكلت الحملات.

ظهر مهند من بعيد، واقترب بخطى ثابتة.

نظر في عيون الناس، ثم قال:

"إحنا اللي عملناها".

ساد الصمت.

أكمل: "حرقنا الحمالتين. والدكة. وسحبناها من مسجد المصطفى. وطلبنا
من الشيخ يسكت... وسكت. بس ما رشيناه، اعطيناه كَفّ دفانا شوي".

تقدم أحد أقرباء الميت، وقال بصوت مبجوح:

"وين بدنا نغسله الان؟!"

ردّ مهند: "علي بيتي. بفرش بلاستيك، وبمّي باردة، بنغسله. وبنحمله على

أكتافنا... مش أول ميت، ولا آخر وجع".

"وهذا الذنب؟"

"بتحمله. بس برد الليل كان ذنب أكبر".

تراجع الشيخ، ثم أطلق تنهيدة طويلة، وقال: "صدقوه... ما خانوا ربهم، خانهم واقعهم".

ثم نظر إلى مهند، وهمس: "بس الحقيقة، ما بتنستر بالرماد".

سقوط العمامة وصعود الحطب

في باحة المسجد، كان الهواء ساكناً كقلب مقبرة، والوجوه مجمعة كأنها تصلي على شيء ما، لكنه ليس ميئاً.

لم يتكلم الشيخ. لم يرفع صوته، لم يدافع عن نفسه، ولم ينكر ما صار. فقط انحنى، كما تنحني الأشجار اليابسة حين تنكسر في الداخل قبل أن تُقطع.

خلع عمامته بيد مرتجفة، وضعها على طرف السجادة قرب الباب، ومشى حافي الرأس.

تابعته العيون وهو يمرّ، دون سلام، دون استئذان، كأنه يخرج لا من المسجد بل من زمنٍ لم يعد له مكان بين الناس. حتى الأطفال توقفوا عن اللعب، تأملوا انحناء ظهره، وسكتوا.

قال رجل مسنّ، وهو يحدّق في الفراغ: "سقط الشيخ... مش بسبب الدكة، ولا الحمالة... سقط لأنه قبل الرشوة وسكت".

رد شاب يقف بجانبه:

"وسقط لأنه ما عرف إنه البلد اتغيرت، وإن الناس بطلت تنام عالذلّ".

في الزاوية المقابلة، وقف مهند وسامي ومحمود وعلاء. لم يصرخوا، لم يرفعوا راية، فقط تبادلوا نظرات قصيرة، وفيها طمأنينة هادئة.

قال سامي: "نفذناها".

ضحك علاء: "مش بس حرقنا الحمالة... حرقنا هيبة ناس كتار كانوا يبيعوا الدين بالدفا".

قال محمود: "والناس فهمت؟"

رد مهند، بصوت منخفض، لكنه عميق: "مش لازم الناس كلها تفهم. بس إذا المسجد نصف... والموتى اندفنوا بكرامة... والبرد ما قتل حدا، بنكون عملنا اللي علينا".

خرجوا من المسجد كأنهم يخرجون من معركة. لا جرحى، لكن في عيونهم نار.

أحد الأطفال تبعهم، سألهم: "وين رايعين؟"

ضحك محمود وربت على رأسه: "ندور على دكة جديدة... بس هاي المرة، مش لنكسرهما".

وفي الليل، حين خف المطر وهدأ الهواء، اجتمع الناس في الساحة. لم يكن هناك شيخ، ولا نار، ولا صفيحة حديد.

كان هناك فرش بلاستيكي، وجثمان شهيد جديد، وحناجر تقرأ الفاتحة. وغُسل الشهيد، وحُمِل على أكتاف حية، ومشى خلفه من لم يكن يعرف اسمه، لكنه آمن أنه يستحق وداعاً لا يلوّثه خشب محروق، ولا صمت مريب.

وارتفعت همسة بين الحشود:

"رجعت هيبة الموت... والدفا، رجع من قلوب نظيفة".

تمت.

طوق موسى

هروب تحت أزيز الرصاص

في قلب غزة، حيث الأرض تضجّ بصوت القنابل والرصاص، تعيش عائلة "الخطيب" في حيّ منكوب، بعد أن فقدت كل شيء تقريباً. الأب "أحمد" كان يعمل سائقاً على حمارهم "موسى" الذي تعلّق به الجميع، كان بمثابة عضو آخر في العائلة، يُحمل عليه الطعام والأدوية والمعدات، ويُسافر به أحمد إلى أماكن بعيدة في الأوقات التي تتوقف فيها جميع وسائل النقل. بعد أن دُمرت معظم المركبات الخاصة والعامة في الحرب، أصبح موسى هو الحبل الذي يربطهم بالحياة.

في يوم من الأيام، وبينما كانت غزّة تشتعل، جاء الخبر المروع: "الجيش الإسرائيلي يطلب من السكان إخلاء المنازل تحت القصف، أو سيكون مصيرهم الموت". كانت اللحظة قاسية، والشوارع مليئة بالدخان، والسماء مشبعة بالصواريخ. على عجل، حمل أحمد عائلته على ظهر موسى، وحاولوا الهروب من أتون الحرب.

"أحمد، الحمار! لن نستطيع أخذه، لقد أصبح الوقت ضيقاً والشارع مليء بالنار!" قالت زوجته "منى" وهي تبكي في خوف.
ولكن أحمد تمسك بحمارهم. "لن أتركه هنا، هو حياتنا، لولا موسى لما استطعنا العيش".

لكن، ما إن حاولوا الهروب، حتى حاصرهم القصف وأصبح عليهم اتخاذ قرار صعب. وبينما كانوا يركضون نحو مناطق أكثر أماناً، شعر أحمد بيد "منى" تسحب ذراعه فجأة. "أحمد! هناك قصف على البيوت والشوارع المحيطة! لا أريد أن نخاطر!"، كانت تلك هي اللحظة التي انفصل فيها موسى عنهم.

موسى في يد الغرب

بعد أيام من النزوح والانتقال إلى مناطق أكثر أماناً، اكتشف أحمد أن موسى لم يعد في مكانه. كانت أصوات الانفجارات قد طغت على تلك اللحظات التي ربما كان يمكنهم خلالها أخذ الحمار معهم.

في اليوم التالي، تصدر الأخبار على التلفاز في غزة عن "أسر" مجموعة من الحمير. العناوين تقول: "تأخذ سلطات الاحتلال الإسرائيلية الحمير المملوكة للفلسطينيين بحجة تحسين أوضاعها، ونقلها إلى مراكز رعاية في أوروبا." نظر أحمد إلى الشاشة بغضب وحزن في آن واحد. كان يعلم أن موسى كان يُستخدم بنظام قاسي في غزة، لكن من أجل البقاء، كان عليه أن يعمل بلا توقف. وأكدت الأخبار أن هذه الحمير ستُنقل إلى "مراكز للعناية بها في بلجيكا وألمانيا وفرنسا".

"موسى هناك؟ في أوروبا؟" تساءل أحمد وهو يكاد يصدق ما يراه. بقلق متزايد، بدأ أحمد في البحث عبر الإنترنت، ووجد العديد من الجمعيات التي تتبنى رفاهية الحيوانات في أوروبا، وتخصص مشاريع لإعادة تأهيل الحمير التي تعرضت للإساءة. كانت هذه المنظمات تنشر صوراً للحمير في ملاجئ أوروبية مترفة، وكان شعارهم الأساسي هو "الرفق بالحيوان".

"هل يتسابقون على إنقاذ الحمير بينما نُقتل هنا كل يوم؟" تساءل أحمد بغضب.

صراع إنساني وحيواني

على الجهة الأخرى من العالم، كانت الجمعية الأوروبية التي تبنّت موسى تبدأ في تجهيز تقرير إعلامي حول حالة الحمار، وكيف تم "إنقاذه" من قسوة الحرب. استلمت الجمعية صوراً لموسى وهو يأكل العشب في أحد المزارع في بلجيكا، ولكن أحمد لم يكن يعرف شيئاً عن هذه التفاصيل. كان يراهن على أن موسى قد نُقل إلى "ملاجئ الحيوان"، لكن الحقيقة كانت أكثر تعقيداً مما تصوره.

كانت حمير غزة قد تحولت إلى "رمز" في الإعلام الغربي. منظمة "حماية الحيوانات العالمية" بدأت حملة دعائية ضخمة حول معاناة الحمير في غزة، بينما في الجهة الأخرى كانت أخبار القتل اليومي في غزة تمرّ بمرارة دون أن يلتفت إليها أحد.

في أحد الأيام، جاء اتصال من "ندى"، إحدى الناشطات في مجال حقوق الحيوانات في بلجيكا. كانت قد عثرت على موسى في مزرعة في بلجيكا.

"أحمد، نحن الآن في بلجيكا... موسى في حالة جيدة، ولكننا نحتاج إلى مساعدتك في توثيق قضيته. سنقوم بتقديمه كأيقونة لحقوق الحيوان، وسنعمل على نشر الوعي حول ما يحدث في غزة".

لكن أحمد لم يكن يهتم بكل هذا. "هل من يدافع عن الناس هناك؟ هل من يتحدث عن مقتل عائلتنا؟ نحن لا نريد مساعدات لأجل حمار، بل لأجل أطفالنا!"

كانت هذه نقطة الانفجار في قلب القصة. بدأ أحمد في إرسال رسائل عبر الإنترنت ووسائل الإعلام مطالبًا بعين إنسانية تجاه الفلسطينيين في غزة، وحاول ربط قضيته بقضية موسى . نشر منشورًا على صفحات التواصل الاجتماعي، قال فيه: "أيها العالم، إذا كنت تحب موسى، إذا كنت تدافع عن حقوقه، فلا تنسى أن هناك إنسانًا في غزة يحتاج للنجاة أيضًا.

العيش في ذاكرة الخيبة

مع مرور الأشهر، تحوّل موسى إلى أيقونة إنسانية غربية، بينما ظلت مأساة غزة تتصاعد. كانت الجمعيات الدولية تتسابق لنقل الحمير وتقديم الدعم لها، بينما قوبل الفلسطينيون بالجدران والمزيد من الحصار.

وفي النهاية، كانت المفاجأة الكبرى. عندما قرر "حسام" صديق أحمد المقيم في بلجيكا، أن يلتقي بمنظمي حملة موسى في بلجيكا. حين وصل، صُدم بشدة عندما اكتشف أن حمار صديقه كان جزءاً من حملة دعائية أوسع، وأن الاهتمام به كان مرتبطاً فقط بالصورة، لا بالمأساة الإنسانية التي يعاني منها الشعب الفلسطيني.

وحين علم أحمد استشاط غضباً؛ وسأل نفسه: "موسى... هل كان حقاً أولويّة؟ أم أن قضية الإنسان هناك ليست أكثر من مجرد ظل في عيون العالم؟"

وها هنا تكمن المفاجأة: هل نستحق حقاً أن ننظر إليهم ككائنات بشرية إذا كانت قضايا الحيوانات في الحرب تُرفع أولاً؟ وكيف يجب أن يُنظر إلي الفلسطينيين في ظل العالم الذي يتجاهل دمائهم؟

موسى... سفير بلا شعب

لم يستطع أحمد أن يسافر، ولا أن يخرج من غزة كما كانت تخبره "ندى" عبر رسائلها الصوتية. كان يشعر أن المسافة بينه وبين موسى ليست آلاف الكيلومترات... بل آلاف الجدران، نقاط التفتيش، الحواجز، الطائرات

التي لا تغادر السماء، والبحر الذي تحرسه البوارج، والحرب التي لا تنتهي.

كلما جاءت رسالة من "ندى" يخبرونه فيها أن موسى نُقل إلى مزرعة جديدة أو أُجري له فحص طبي أو أنه أصبح "رمزاً" لحملة دولية، انقبض قلبه أكثر .

شعر أن العالم يتذكر حيوانه لكنه ينساه هو وطفليه وزوجته. في ليلة ممطرة داخل خيمة النزوح، جلس أحمد يحَدِّق في صورة موسى المرسلة من بلجيكا. كان الحمار يبتسم بطريقة غامضة، واقفاً على أرض خضراء لا يعرفها.

قال أحمد بصوت متهدج: "يا موسى... يبدو أنك خرجت من غزة قبلي". سكنت منى طويلاً، ثم قالت: "هل تعتقد أن بإمكانهم إجلاء حمار... ولا يستطيعون إخراجنا؟" لم يجد أحمد جواباً.

لكن ندى أرسلت له رسالة جديدة، كانت أكثر غرابة مما سبق: "أحمد، صورتك مع موسى شغلت الناس... الجميع يريد معرفة قصتك. نريد أن نستضيفك هنا، أنت وعائلتك. لكن... الوضع معقد. نحتاج لمراسلات وإجراءات وموافقات... وربما نتواصل مع منظمات دولية". أحمد شعر بشيء يشبه الحلم... لكنه كان حُلماً مربوطاً بسلسلة. كتب لها: "إذا استطاعوا إخراج موسى... فلماذا لا يستطيعون إخراج أصحابه؟"

لكن الجواب جاء بارداً، بلا روح: "القوانين مختلفة. الحيوانات تُنقل لأسباب إنسانية... أما البشر فالأمر يتطلب موافقات سياسية وأمنية".

ضحك أحمد ضحكة حادة، مرّة، غير قابلة للسيطرة.
"الحيوانات تُنقل لأسباب إنسانية... والبشر؟"
لم تجبه أي رسالة أخرى تلك الليلة.

لعبة الأبواب المغلقة

بدأت رحلة أحمد الجديدة: رحلة "الرجاء".
أرسل رسائل لكل جمعية، لمنظمات "حقوق الحيوان"، لجمعيات أوروبية،
وحتى لبرامج تلفزيونية.
كتب لهم قصة عائلته، قصص منازلهم، نزوحهم، فقدانهم موسى...
وكتب جملة جعلت كل من قرأها يتوقف: "خذونا كما أخذتم موسى، نحن
أيضاً نريد حياة آمنة".

انهالت التعليقات على صفحته، بعضها بحسن نية، بعضها بسداجة:
" -نحن نشعر بك، لكننا لسنا مخولين بإجلاء البشر."
"-القانون يتيح لنا نقل الحيوانات وليس الأشخاص."
"-ربما نستطيع دعمك بالطعام والمؤن".

لكن أحمد أصبح يرى الحقيقة بوضوح لم يره من قبل: هناك أبواب تُفتح
للحمير لأنّها لا تُسأل عن جنسيتها... وأبواب تُغلق في وجه البشر لأنهم
فلسطينيون.

في إحدى الليالي، جاء اتصال صوتي من رقم دولي.
كانت ندى، تبدو مرتبكة، تتحدث بسرعة: "أحمد... اسمعني جيداً. نحن
قدمنا طلباً رسمياً لإجلائكم. لكن الرد جاء مرفوضاً. يقولون إن المنطقة

عسكرية... وإنه لا يمكن إخراج أي شخص. في الحقيقة... حتى وصول
الإبلاغ إليك يُعتبر اختراقاً".
أحمد استمع لها بصمت.
لم يعد لديه قوة للغضب.
فقط ثقل في صدره... يشبه صخرة.
"لكن موسى خرج..." قال بصوت منخفض.
ساد صمت طويل في المكالمة.
ثم قالت ندى بصوت منكسر: "موسى... لم يكن يشكل خطراً أمنياً".
ابتلع أحمد ريقه، وشعر بشيء ينكسر داخله.
"وأنا... أشكل خطراً؟"
لم تجب.

العالم يرى موسى... ويفقد أحمد
أصبحت قصة موسى على قنوات أوروبية عديدة.
"الحمار الذي نجا من غزة."
"رمز الرفق بالحيوان في النزاعات."
"الحمار الذي حصل على حياة جديدة."
وبينما كانت الكاميرات تتبع موسى، كان أحمد يتابع أخباراً أخرى:
قصف جديد.
ضحايا جدد.
انقطاع كهرباء.
نفاد خبز.

نزوح ثانٍ وثالث.

كان يقول: "تم إنقاذ الحمار... وبقي الإنسان".

في تلك الفترة، جاءت رسالة غير متوقعة من صحيفة غربية شابة اسمها إيليزا.

كتبت له: "أريد أن أروي قصتك... قصة الإنسان الذي يبحث عن النجاة كما تبحث الحيوانات.

أريد أن أجعل الناس يرونك".

كان أحمد متردداً. لكنه وافق.

بدأت إيليزا تنشر تقارير عبر منصات عالمية، تضع صورة موسى بجانب صور أحمد وعائلته.

كتبت تقريراً بعنوان: "الحمار نجا... لكن صاحبه ما زال تحت النار".

أحدث التقرير ضجة...

لكنه أيضاً جلب غضباً وتهديداً.

منظمات ضغطت لإيقافها، جهات رفضت الربط بين "قضية إنسانية" و"قضية حيوان".

لكن إيليزا لم تتراجع.

مفاجأة تحت الرماد

ذات صباح، وبينما كان أحمد يقف في طابور الخبز، جاءه طفل من الحي يركض وهو يصرخ: "عمّ أحمد! تعال بسرعة! في ناس أجانب بدهم يشوفوك!"

تردد قلبه.

هل يمكن أن يكون...؟
ركض نحو خيمته، وهناك وجد مجموعة صغيرة من المتطوعين
والصحفيين الأجانب، ومعهم مترجمة.
قالت له المترجمة: "أحمد... قد لا نستطيع إخراجك من غزة... ولكن
بإمكاننا أن نجعل صوتك يصل إلى العالم. وهناك شيء آخر..."
فتح أحدهم صندوقاً خشبياً صغيراً كان يخفيه خلف ظهره.
في داخله... طوق موسى القديم.
الطوق الذي ضاع يوم النزوح.
انهارت إحدى الأجنيات باكياً.
وأحمد أمسكه بيده كما يمسك شيئاً عاد من الموت.
قالت المترجمة: "الطوق بقي في المزرعة... وأعادوه لك لأنهم قالوا إنك
تستحق أن تملك شيئاً من موسى، حتى لو كان العالم كله يرفض أن
يعطيك أكثر من هذا".
رفع أحمد الطوق... وشعر لوهلة أن موسى معه.
لكن المأساة كانت واضحة: العالم أعاد له ذكراه... ولم يعيد له حقه في
الحياة.

البداية الجديدة

جلس أحمد في الليل، يكتب رسالة أخيرة لندى، وللجمعيات، وللعالم كله:
"- إن كنتم حقاً تهتمون بالرفق بالحيوان...
فاعلموا أن الإنسان هنا أصبح أضعف من الحيوان.
لم أعد أريد الخروج... أريد فقط أن أرى.

أن أعرف أن هناك من يسمع، من يفهم...
أن حياة الإنسان تستحق السعي من أجلها
كما سعيتم من أجل موسى".

وبينما كان يكتب، كانت الطائرات تحلق في السماء من جديد، وكانت
غزة على موعد مع ليلة أخرى من الظلام.
لكن أحمد شعر بشيء مختلف هذه المرة.
لقد أصبح صوته مسموعاً.
ليس لأنه شاعر...
ولا لأنه ناشط...

بل لأنه صاحب الحمار الشهير الذي خرج من غزة.
وبقي السؤال معلقاً: هل سيأتي يوم يخرج فيه الإنسان... كما خرج
الحيوان؟

لمعزة ... أو لمستقبلٍ يقرر فيه العالم أن يرى الإنسان أولاً.

تمت



ليلة الدجاج المنتظر

"حين صارت الدجاجة حلمًا وطنياً"

في أرضٍ لا تنام إلا على هدير الطائرات، ولا تستيقظ إلا على وعدٍ مؤجّل بالفرج، يظلّ الناس يبحثون عن معنى للحياة، ولو كان ذلك في دجاجة! هذه القصة ليست عن الطعام، بل عن الجوع الذي أصبح لغةً، ولا عن الدجاج، بل عن الإنسان حين يُحاصر حتى في شهيّته.

في غزة، حيث تُقاس الأيام بعدد المرات التي تخرج فيها الشائعات عن وصول الدجاج، وحيث تُطبخ المقلوبة بالأمل بدل اللحم، تضحك العائلة على وجعها، وتحوّل الانتظار إلى نكتة، وتحوّل الدجاجة — البسيطة، المسكينة — إلى رمزٍ للحياة نفسها.

بين الشائعات والقدر الفارغ، بين صراخ الأسواق ورائحة "الفتة الكذّابة"، تُكتب هذه الحكاية الساخرة المؤلمة، حكاية عائلة فلسطينية تصنع الفرح من الوهم، وحكاية دجاجةٍ لم تصل، لكنها وصلت بطريقة أخرى... إلى القلب.

ليلة الدجاج المنتظر

كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلاً حين دوّى الخبر في الحيّ كالرعد: "يا جماعة الخير! غداً الدجاج بالسوق... بثمانية وعشرين شيكل فقط!" كلمة دجاج وحدها كانت كافية لتُعيد الحياة إلى أزقة غزة المنهكة. خرج أبو سامر إلى الشرفة وهو يصرخ لزوجته: أم سامر! قومي بشري الأولاد، الفرج نزل من السما!

-شو في؟

-دجاج يا مرا، دجاج!.. دجاج حقيقي!

في لحظة، تحوّل البيت إلى مهرجان صغير.

حتى سامر الصغير، الذي لم يذق طعم اللحم منذ شهور، ترك لعبة

البلاستيك وركض يهتف: يعني بُكرة بناكل جناح؟

ضحكت أم سامر حتى دمعت عيناها: جناح؟ يا روي بkra بناكل صدر،

وصدرين كمان!

جلس الجميع في حلقة حول مائدة فارغة إلا من الشاي بالنعناع

والبسكويت الرديء، وبدأت جلسة الحلم الجماعي.

قال أبو سامر متحمساً كمن يخطّط لمعركة مصيرية: أول أكلة لازم تكون

فتّة غزاوية بالدجاج، لازم نفتتحها بشي تقليدي محترم.

ردّت سعاد، ابنته الكبرى: لااا يا بابا، المسخّن أولاً! يعني بدنا نكرم حالنا

بالبصل والزيت وخبز الصاج... لسة منسيتش الطعم!

هتف سامر الصغير: وأنا بدي دجاج حراري، من اللي بيقرمش!

قهقه الجد من زاويته: دجاج حراري؟ إحنا بدنا أي دجاج، حتى لو

دجاجة متقاعد من مزرعة التجار!

تدخلت الجدة بحزم الأمهات: ما حدا يحكي! بkra بملككم مقلوبة

بالدجاج، زهقنا المقلوبة الكذابة اللي فيها شوية بطاطا وباذنجان

وبناكلها من غير نفس!

ساد الصمت لحظة، ثم سمعوا صوت بلع جماعي للعاب.

قالت أم سامر وهي تمسح على بطنها: والله حاسّة الريحة طلعت من الآن.

ضحكوا جميعاً، وأطفأوا الأنوار على وعدٍ بأن غدّاً سيكون يوماً أبيض... بل مقرمشاً.

ناموا متقلبين، يحلمون بقدور تفور، وبدجاجات تركض في أواني الطبخ كأبطال عائدين من النصر.
لكن...

مع أول خيط فجر، استفاق الحيّ على همسات مشؤومة: يا ناس، الخبر إشاعة!

-الدجاج ما دخل، الاحتلال وقف الحاويات على المعبر ومنعها من العبور!

تجمّد الزمن.

تطلّع أبو سامر في وجوه أبنائه المترنّحة بين الحلم والمعدة الفارغة، وقال بمرارة: حتى الدجاج صار مقاوم... ما بيدخل بسهولة! ضحكوا، ولكن ضحكهم كان أشبه ببيكاء مكتوم.

خطة العائلة لاصطياد دجاجة

استفاقت العائلة في اليوم التالي على خيبة بحجم قِدر المقلوبة الفارغ. لم يكن في البيت سوى رغيفين بايتين، وبعض الزيت، وعلبة جبن من نوع "عبور لاند" نصفها هواء.

لكن أم سامر، التي لا تعرف الاستسلام، انتفضت كقائدة ميدانية وقالت: يا جماعة، مش رح نستسلم. الدجاج مش بس في السوق... أكيد في مكان.

-وين يعني؟ - سأل الجد وهو يحكّ رأسه - بدنا نصيدها من البحر؟ رفعت أم سامر سبابتها بعزم: لأ، من السوق السوداء. كل شي ممنوع في السوق، ممكن نلاقه هناك، حتى الدجاج!

ساد الصمت لثوانٍ، ثم ارتفعت الهمهمات: أبو سامر يمسح ذقنه مفكراً، سعاد تفتح هاتفها لتبحث في مجموعات "بيع وشراء غزة"، وسامر الصغير يصيح: ماما، في جارنا عنده ديك... بنستعيّره؟!

فهقه الجميع، إلا أم سامر التي أخذت الفكرة بجدية مريبة: والله فكرة... ديك لحاله ما بيكفي، بس ممكن نعمله شورية "تجريبية"! ضحك الجد حتى دمعت عيناه وقال: يا مرا، الديك صوته أهم من لحمه، بيغني كل فجر "كوكو"، أتريدي أن تسكّتي غزة؟ لكن الحماسة كانت قد اشتعلت.

قرر أبو سامر الانطلاق إلى السوق، وفي عينيه بريق مغامر يبحث عن كنز.

قبل أن يخرج، أوصته زوجته قائلة: إذا شفت دجاجة، لا تساوم كثير، اشتريها فوراً حتى لو كانت دجاجة عورة أو عجوزة بتمشي بالعكاز!

في السوق، المشهد كان كاريكاتورياً تماماً: رجال يتبادلون الشائعات كأنها أسهم بورصة، نساء يسألن السّراجين عن الدجاج بدلاً من القماش،

79

يوم المقلوبة المنتظرة

مرّت ثلاثة أيام منذ طبخة "فتّة الأشباح"، والعائلة ما زالت تقنات على الذكريات ورائحة الوعود.

حتى الهواء صار له طعم دجاج متخيل، كأن غزة كلها تطبخ في الحلم. صباح اليوم الرابع، سُمِعَ في الحيّ صوت الجارة أم نبيل وهي تصرخ من الشرفة: دخلوه يا ناس! دخلوه! الدجاج دخل المعبر! لم يفهم أحد في البداية... ثم دوّى الخبر كصاعقة: "قوات الاحتلال سمحت بدخول شاحتين من الدجاج إلى غزة!"

اندفع الناس إلى الشوارع كما لو أن المطر نزل بعد سبع سنين من الجفاف.

أبو سامر، الذي كان يصلح الراديو القديم، قفز كمن لسعته الكهرباء: أم سامر! حضّري القدر الكبير، اليوم المقلوبة حقيقية! ركض الأولاد في كل اتجاه، وسعاد صارت تكتب قائمة المشتريات على ورقة صفراء مرتجفة: دجاج، باذنجان، بطاطا، رز، لبن... ياااه، صرنا نكتب مثل الأسياذ!

في السوق، المشهد كان أشبه بمهرجان للدهشة: الناس يركضون وراء الشاحنات، وكأن الدجاجات تصرخ داخل الأقفاص (مع أنها مجمدة في كراتين)، والتجّار يصرخون أكثر منها. كل كيلو دجاج يُساوي كنزًا.

اقترب أبو سامر من تاجر شاب وقال برجاء: بكم الكيلو يا ابني؟
ردّ التاجر بفخر المنتصر: بـ 100 شيكل... اليوم ارتفع السعر لأنّو "حالا
واصل" من المعبر!

- هو جاي من المعبر مش من باريس!
لكن لا فائدة.

بعد جدال قصير، اشترى دجاجة صغيرة بـ 140 شيكل. حملها كمن يحمل
ماسة ثمينة، وسار بها للبيت مرفوع الرأس كأن النصر قد تحقق.
عند الباب، استقبلته أم سامر بصرخة فرح هزّت الجدران: رجع البطل!
ثم رفعت الدجاجة أمام الجميع كراية بيضاء تقول: "ها قد عادت
الحياة!"

وبدأ المهرجان.

غسلتها بحنوّ كأنها طفل عاد من الغربة، ثم وضعتها في القدر الكبير،
وأخذت تمزج الرز والتوابل بعيون تشرق كمن يطبخ ذكرى لا وجبة.
البيت كله امتلأ بالروائح التي غابت عن عبق الأنوف منذ شهور. ونسيت
العائلة شكل الدجاجة منذ سؤال "البيضة أم الدجاجة أولاً"، وسامر
الصغير راح يدور في المطبخ وهو يصيح: ماما، الريحة بتضحك!
ضحكوا جميعاً.

الجد جلس عند الباب يتشمم الهواء كمن يصلي، وقال بصوت متأمل: آه
يا غزة، حتى المقلوبة عندك ثورة... تنقلب الدنيا قبل ما تنقلب الطنجرة.
حين أزفت لحظة قلب القدر، اجتمعوا حول المائدة كما لو كانوا في عيد
رسمي.

أمسكت أم سامر بالقدر وقالت في خشوع: باسم الصبر والحرمان،
نقلبها على بركة الله!

قلبتـها...

وسقطت المقلوبة على الصحن، بلونها الذهبي ورائحتها الأسطورية،
فضفك الجميع كأنهم شهدوا معجزة.

جلسوا يأكلون بصمت مهيب.

كل لقمة كانت دمةً من الفرح والحرقة معاً.

قال أبو سامر بعد أول قزمة: والله يا جماعة... الطعم مش بس طعم
دجاج، هذا طعم الكرامة.

ضحك الجد وقال وهو يمسح شاربه: يا ريت الدجاج يعرف إنه صار رمز
وطني!

ساد الضحك، وتبادلوا النكات والذكريات، حتى شعرت العائلة أن الجوع
لم يكن عدوهم، بل معلمهم في فنّ الصبر والأمل.

وقبل أن يخلدوا للنوم تلك الليلة، قالت أم سامر وهي تغطي القدر
الفارغ: الله يجعلها آخر مقلوبة ننتظرها بالحلم، مش بالإشاعة.

ابتسم الجميع، ثم أطفأوا النور...

وفي الخارج، كانت الريح تحمل رائحة المقلوبة الحقيقية، تدور بين خيام
المخيّم، كأنها تقول: "غزة... ما زالت تطبخ الحياة رغم الحصار".

حكاية دجاجة لم تصل

كنتُ دجاجة عادية جداً... خلقتُ في مزرعة مزدحمة بالضجيج والرائحة، لا أعرف من الدنيا سوى الحبوب، والماء، وصوت العامل وهو يعدُّنا كل صباح كأننا أكياس بطاطا.

لم أكن أحلم بشيء كبير، فقط بظلِّ بارد أختبئ تحته، وحبّة ذرة تقع صدفة أمامي.

لكن في يومٍ من الأيام، سمعنا خبراً عجباً يتردّد بين أقفاصنا: "رح نروح على غزة!"

لا أعرف من تكون غزة، لكن النغمة في صوت الرجل كانت تشبه نغمة من يتحدث عن الجنة.

ظننتها مكاناً فيه حبوب كثيرة، ومساحات للركض، وربما أطفال يطعمونك من أيديهم الصغيرة.

ركبونا في الشاحنة.

كنا مئات، في صناديق ضيقة كأننا أوراق نقد جديدة تُهرَّب بحذر.

طوال الطريق كنت أسمع أصواتاً بشرية تتجادل: لازم يدخلوا اليوم.

-لا، المعبر مسكّر.

-يمكن يسمحوا بدفعة رمزية.

"دفعة رمزية؟"

ضحكت في داخلي، ولم أكن أعرف أنني أنا تلك "الرمزية".

حين وصلنا إلى الحدود، توقفت الشاحنة فجأة، ثم ساد الصمت.

مرت ساعات، والشمس تضرب ظهورنا، والماء نفذ.

كنت أسمع صراخنا وصراخ البشر في الخارج، لكن لا أحد يتحرك.
في لحظة، أدركت أنني لن أصل إلى غزة.
سمعت أحدهم يقول: رجّعوها، مش مسموح تدخل اليوم.
تسللت في داخلي فكرة غريبة... أن هناك بشراً في الجهة الأخرى
ينتظرونني كمن ينتظر عيداً.
ربما أم سامر هناك تهَيَّيَّ القدر وتنتظرنني لأكون "بطلة المقلوبة"، وربما
طفلها الصغير يحلم بعضّة من جناحي، وربما الجد يجلس قرب النافذة
يردد: "يا ريت الدجاج يعرف قيمته".
ابتسمت رغم خوفي.
يا للعجب... دجاجة أصبحت أملاً!

عاد بنا السائق أدراجه.
بعضنا مات في الطريق، والباقون خُبِّئُوا في مزرعة أخرى بانتظار
تصريح جديد.
أما أنا... فقد قررت أن أهرب.
قفزت من القفص حين فتحوه، واختبأت بين الأعشاب، أراقب السماء
من بعيد.
ومن هناك، رأيت غزة...
مدينة صغيرة على البحر، تختلط فيها أصوات الأطفال بصوت الطائرات،
والضحك بالدمع، والطبخ بالأخبار.
شممت رائحة المقلوبة التي طبختها أم سامر دوني، ورأيت بخيالي عائلةً
تضحك حول مائدة فارغةٍ إلا من الأمل.

أغمضت عيني وقلت: "لا بأس... فربما تكون روحي قد وصلت قبل جسدي".

ومنذ ذلك اليوم، صرت أؤمن أن في غزة، لا تحتاج أن تكون لحمًا لتُطعم أحداً، ولا أن تكون طيراً لتُحلّق.

يكفي أن تكون حلماً بسيطاً بطعم الدجاج... ورائحة الحياة.

النهاية

لكنك تخرج من القصة متسائلاً: من كان أطيّب؟
الدجاجة التي لم تصل، أم القلوب التي ما زالت تطبخ الأمل وسط الجوع والحصار؟

ليست هذه الحكاية عن دجاجةٍ ولا عن مائدةٍ فارغة، بل عن شعبٍ يطهى الحياة على نار الانتظار، ويجد في فتات الأمل وجبةً كاملة.
ضحكتُ وأنا أكتب، كما يبكي الجائع حين يتذكر الطعم، وسخرتُ كما يسخر الفلسطينيون من الحصار كي لا يختنق به.
في غزة، يصبح الخبز بطولة، والدجاجة حلماً، والضحك مقاومةً صغيرةً في وجه القهر الكبير.

لعلنا نتعلم منهم أن الكرامة ليست في ما نأكل، بل في كيف نحافظ على قدرتنا على الحلم... حتى ونحن جائعون.

تمت.

ولادة جيل بلا وجه

في ذلك السوق، لا أحد يسأل عن الاسم، عن الأصل، عن العائلة.
هنا، تولد الهوية من عدد السكاكين التي تحملها، ومن قدرتك على رفض
النقود القديمة، ومن سرعة صفحك للضعفاء.
شاب اسمه "وسيم"، لا يعرف أحدًا وسيماً هنا، آخر اسمه "مؤمن"، وهو
لا يعرف من الدين سوى أن الصيام يُفقدك الزبائن.
كانت فتاة تمرّ، تمسك يد طفلها، فصاح بها أحد الباعة: "إذا ما معك
مصارى جديدة... خلي ابنك ياكل تراب".
لم ترد.

فقط شبكت يدها أكثر على الصغير، وسارت كمن يهرب من زمن لا يشبه
البشر.

حين تسقط كل المسميات
مرّت امرأة مسنّة، تشبه الذاكرة.
قالت لهم: "زمان كنا نشترى من الدكاكين... كان في دفاتر دين...
وكان البائع يحلف وما يكذب... وين راح كل هذا؟"
ضحك شاب في العشرين: "راحت أيامكم... وإجت أيامنا. هذا زمن
الجوعى المقهورين المسلحين!"
ردّت المرأة بهدوء: "لا... هاد زمن المسوخ".
وانصرفت.

في تلك السوق، لا شيء يُباع بثمنه الحقيقي.

لا الطحين، لا الفول، ولا حتى الإنسان.
كل شيء يُساوَم عليه بسكين، وكل من بقي فيه شيء من الرحمة... لا
يعيش طويلاً.

تمت

نتقاسم الألم

في المخيم المزدحم، حيث الخيام تنكمش على الألم، خرج أبو ليلي من خيمته متكئاً على عزمته، يدفع عجلات كرسيه المتحرك بيدين نحيلتين أكلتهما السنون والحصار. أراد أن يزور ابنته في الطرف الآخر من المخيم، حيث خيمة صغيرة تؤويها مع أطفالها بعد أن دُمر منزلهم.

الشمس لم تكن قد وصلت كبد السماء بعد، لكن الطريق من خيمة إلى أخرى صار درباً من شوك ورماد. أبو ليلي كان يعرف أن الوقت ليس في صالحه، لكنه اشتاق إلى وجه ابنته، إلى حديثها القصير، إلى طمأننتها بأنه بخير، ولو كذباً.

جلس أمام خيمتها دقائق معدودات، ابتسم، سأل عن الأحوال، عن الخبز، عن الماء، ثم سحب ساعة مهترئة من جيبه وحدّق فيها. قال بهدوء: "لازم أرجع، أمك تنتظر الكرسي".

نظرت إليه ليلي بعينين تعبيتين وقالت: "لكنك تعب، خذ راحتك شوي". هزّ رأسه، وعيناه تغالبان الانكسار: "ما بقدر، أمك لازم تروح على المستشفى، عندها غيار... رجلها المبتورة عم تنزف".

ثم همس وكأنه يخاطب نفسه: "نتقاسم الكرسي... هي تجلس عليه في الصباح، وأنا في المساء. صار الكرسي كأنه عضو متا". ليلي أمسكت بيده، شدّت عليها: "الله يقويكم، ما حدا يستاهل هيك حياة".

ابتسم بألم، وقال: "الحياة مش عادلة يا بنتي... بس طالما إحنا مع بعض، بنتقاسم الألم... مثل ما بنتقاسم الكرسي".

ثم استدار بالعجلة، ودفع نفسه عائداً في الطريق نفسه، يمرّ على الركّام،
على الأطفال الذين لا يلعبون، على الصمت الذي صار لغة الناس. لم
يترك خلفه سوى طيف أبٍ مُنهك، يحارب الحرب بعجلتين وصبر امرأة
تنتظره لتكمل بها طريق الجرح.

وفي خيمتهم، كان الكرسي المتحرك رمزاً لصمود لا يراه العالم... لكنه
هناك، يدور بين رجلين مبتورين وقلبين لا يزالان يحلمان بالحياة.

تمت

ليتني أعود

كانت الأنوار الخافتة في المشفى الأوروبي تنن مثل جراح المرضى، وكان الليل يمطر خوفاً أكثر من المطر. في أحد الأركان، كانت الطفلة اليمنى، ذات التسعة أعوام، ممددة على سرير بارد لا يشبه سريرها الوردي في البيت الذي صار رماداً.

ضمادة كبيرة تلتف حول بطنها، وحقنة مهدئ تنام على المنضدة المعدنية بجانبها، تنتظر من يمدّ يده، لكن الممرضة غابت منذ ساعة حين بدأ القصف يقترب من أسوار المشفى.

دخلت أمها، وجهها شاحب ويديها ترتجفان وهي تحمل عباءة وقطعة خبز يابسة. اقتربت من اليمنى، جلست بجانبها، وربّتت على شعرها المجعد:

- "يمنى... لازم نروح، الجيش طلب إخلاء المستشفى فوراً".

رفّت جفناها بصعوبة، ورفعت صوتها المرتجف:

- "بس أنا مجروحة، ماما... كيف بدي أمشي؟ وكيف بدنا نغير الشاش؟ والدواء؟!"

حاولت أمها أن تخبئ دموعها بصوت حازم كاذب:

- "نرجع خيمتنا، وبدبر حالي، بنتي شجاعة. بجمع شاش، وبنضف الجرح بالمياه والملح، مثل ما علّموني".

- "بس ببوجع، ماما... وبالليل بنام وبصير يوجع أكثر..."

أمسكت الأم يد ابنتها، وقالت بصوت مكسور:

- "أنا بحضنك كل ليلة. يمكن ما عندي مسكن، بس عندي دعاء، وعندي قلبك الطيب، وعندي الله".

خرجتا من المستشفى، والأصوات من حولهما تصرخ: أمهات يفتشن عن أطفال، مرضى يُسحبون على حصر بالية، وآخرون يُحمّلون على الأكتاف.

لم يكن خروجًا من مستشفى، بل من بقايا حياة.

في الخيمة، بعد ساعات من الزحف بين الدمار، جلست الأم تُحضّر الغيار الأول: ماءً دافئ قليلًا من شمس الظهيرة في قنينة بلاستيكية، وقطعة قماش مغسولة، وبعض الأعشاب المطحونة.

قالت يمنى وهي تكتم صرخة الألم:

- "ماما، انتي صرتي ممرضة".

ابتسمت الأم بمرارة، ثم قبّلت جبينها وقالت:

- "وأنت صرتي بطلة".

كان الألم حاضراً، لكنه أقلّ قسوة من الخوف الذي تركتاه خلفهما في المشفى.

وفي قلب الخيمة، كان هناك درسٌ لا يُكتب في كتب الطب:

أن الشفاء أحياناً يبدأ من حضن أمّ، ومن عزيمة طفلة، ومن صمودٍ لا دواء له إلا الإيمان.

تمت

لا ترجع يا عمي...

لا ترجع يا عمي...

- "استناني شوي، نسييت المصحف".

قالها الحاج خليل وهو يفتش في جيبه عن مفتاح الباب الذي انخلع صباحًا من شدة القصف.

- "بس المنطقة خطر، يا عمي، الطائرة فوق!"

صرخ الشاب علاء وهو ينظر للسماء، يبحث فيها عن صوت لا يُرى.

- "المصحف... من يوم ما ماتت أم خليل، ما غفلته ليلة. تركته عالطاولة جنب السرير".

صوته كان واهئًا، لكن قدميه كانتا تمضيان بثبات نحو الحارة القديمة، التي صارت أطلالًا من دخان وأبواب محروقة.

- "بس الطائرة بتراقب، كواد كابتر فوق كل بيت. اللي بيرجع، ما بيرجع".

- "أنا مش راجع... أنا بس بكمل اللي نسيته. النسيان أهون من الموت، يا بني؟"

صمت علاء. ظل واقفًا، يراقب ظل الحاج يتقافز فوق الركام، كأنه يركض نحو ذاكرة لن تتكرر.

بعد دقائق، انشَقَّ الهواء بصوت حادّ.

زمجرة معدنية قصيرة.

ثم... سكون.

تسلّلت رائحة تراب محترق.

رأى علاء صفحة ممزقة تطير نحوه.

قرأ: "فاذكروني أذكركم"...

سقطت الورقة عند قدميه.

فبكى.

تمت.

عودة إلى العصافير

في زقاق ضيق في حيّ الزيتون هدأ صراخه منذ ثلاثة أيام، ترقد فيه شرفات مُتعبة، وسماء معلقة بين خوفٍ وأمل.

الراوي:

عاد... كأنه لم يغب. كأنّ الرصاص لم يعبر فوق رأسه قبل أيام. عاد يحمل فتات الخبز، وخُطاه تُحدّث الأرصفة التي اشتاقت لصوته. (رجل مسنّ يطلّ من الشرفة، يُحدث نفسه)

يا ولدي، ألا تعرف أنّ الهدوء في بلادنا خديعة؟ ثلاث ليالٍ لا تعني شيئاً هنا... ثلاث ليالٍ تكفي لتنام، لا لتعود.

(الفتى الصغير يركض إلى أمه)

ماما! ماما! الرجل الذي يطعم العصافير عاد! شُفّته وهو ينثر الخبز! (تغمره بذراعيها، هامسة) صليّ عليه، يا حبيبي... علّ الملائكة تكون أسرع من الموت.

(الرجل، يقف عند زاوية الجدار، يمد يده إلى السماء)

تعالوا يا رُفقاء الريش، الخبز كما تحبّون... فتات الأمس، وقلب اليوم. (تتساقط العصافير من الأسلاك، خفيفة كالعلم).

(صوت انفجار، لا يُرى، لكنه يُحسّ)
الصمتُ تلوّن بالدم.
والفتات تناثر كالرماد.
(الرجل المسنّ من الشرفة، يصرخ)
يا الله! حتى من يطعم العصافير... يُذبح؟!
(صوت امرأة، بعيدة، ثم تقترب)
أين جنازته؟ لا أريد بكاءً... بل أريد عصافير ترفرف فوقه.
علّ الريش يُخفي الجرح... أو يشهد.
(الراوي بصوت منخفض، كأنه يُتمّ صلاة سرّية)
كان يعود دائماً وحده،
إلا هذه المرّة...
عادت معه السماء.

تمت



عادوا... ولكن

[المشهد الأول: بيتٌ صغيرٌ على حافة المخيم، غُرْفَةٌ تتسلَّل إليها الشمس بحياء].

(الأم تنظر من الشباك، تحرك شفَتَيْها بالدعاء)
الأم: اللهم اجعل هذه آخر غيبة... قلبي صار قوقعة من صمت وخوف.
(يدخل الابن فجأة، مُغَبَّر الثياب، لكنه يبتسم)
الابن: يمّا! رجعت!

(تصرخ وتبكي في آنٍ رجعت؟!)
رجعت... علشان أشرب من قهوتك، وأنا م على فرشتي في البيت.
(صوت قصف، قريب جداً، الأم تصرخ: " اسجّد!")
الراوي: لكنه لم يسجد.
سقط كما يسقط الرضيع من يد الغيم.
وسكبت القهوة دمه بدل البن.

[المشهد الثاني: زقاق مظلم، تضيئه قنديلة يتيمة، تمرّ خطوات مُتردّدة].
(رجلان يتحدثان عند الباب)
الأول: قالوا رجعوا خمسة من الشباب.
الثاني: رجعوا، بس الله ما كتب لهم يتناولوا عشاء أمهاتهم.
(امرأة تخرج من باب البيت، تنادي من فوق الدرج)
المرأة: وسيم؟ وسيم حبيبي، وصلت؟
(يظهر ظلّ شاب، ملامحه منهكة لكنه يبتسم، يحمل كيساً فيه تمر وخبز

وسيم: يمّا... جببتك اللي بتحبيه...)
(لحظة صمت. فجأة، صريرٌ في الهواء، صوت رصاصة واحدة).
الراوي: جفّ التمر في الكيس.
وسقط الخبز قبل أن يُقَطَّع.
وسيم... لم يكمل الجملة.

[المشهد الثالث: سطح بيت مهجور، طفل ينظر إلى السماء].
الطفل: عمّي راح ورجع، صح؟
الجد: رجع، بس... مشي فوق الغيم، مش على الأرض.
الطفل: يعني صار عصفور؟
الجد (يمسح دمعة): صار دعاءً... نردده قبل النوم.
الراوي (خاتمة): في هذه الأرض، يعودون... لكنّ الأرض لا تمسكهم
طويلاً.
تحتضنهم لحظة، ثم تُرسلهم شهداء... كأنّها تعتذر عن قُدرتها على الحبّ.

تمت.

ساحة لا تعرف الرحمة

الطابور الذي لا طابور فيه
لم تكن الشمس قد أشرقت تمامًا، لكنّ ساحة مركز المساعدات كانت
تغلي.

لا خيوط منظمة، لا حبال تفصل الناس، لا أوراق ترقيم.
كان الناس يتدافعون كأنّهم يهربون من جحيم إلى جحيم أخف.
الأمهات يدفعن بأطفالهن إلى الأمام، الشبان يصعدون فوق الحشود،
والعيون... العيون كلها كانت تبحث عن كيس طحين أو علبة فول.
صرخت امرأة متهالكة: "بنتي مريضة، بترجّاكم... بس كيس رز!"
دفعها شاب في العشرين من عمره، يحمل بندقية على ظهره: "إذا مرض
بنتك بيطعمنا؟ خليه يفيدك الجوع!"
ردّ آخر بسخرية سوداء: "هان ما في مرضى ولا شيوخ ولا نساء... في
جياع مدججين بالرغبة".
كان الطابور أشبه بكائن هائج، يعضّ نفسه من الجوع، ولا يعرف كيف
يتوقّف.

قانون السلاح

دخل عماد وعلاء وسط الساحة كما لو كانا داخلين إلى حلبة قتال، لا
مركز مساعدات.
كانا يحملان أسلحتهما بشكل علني. البندقية فوق الكتف، واليد على
الزناد.

قال عماد وهو يبتسم بخبث: "اللي ما معه سلاح، ياكل تراب".
ضحك علاء وضربه بكتفه: "السلاح صار بطاقة تموينية... بتمدّها
وبتاخذ اللي بدك اياه".

مرّا بين الناس كأنهما قادمان من زمن مختلف، يتجاوزان النساء
والمرضى، حتى وصلا إلى الحاوية التي تُوزّع منها السلّال الغذائية
وكراتين التموين.

همس أحد الواقفين: "هدول ما بدهم ياكلوا... هدول بدهم يبيعوا!"
لكن لا أحد قالها بصوت مسموع. الخوف... أعمق من الجوع.

إطلاق النار يبدأ

وفجأة... سقط الضوء الأحمر من السماء.

لا صوت طائرة، لا إنذار، لا صفارة.

الطلقة الأولى أصابت طفلاً كان يتشبّث بأمه، فأسقطته.

ثم بدأ الرصاص...

رائحة الحديد، أصوات الصراخ، وناس يركضون فوق أناس.

اختبأ عماد خلف أحد الحواجز الاسمنتية، وصرخ: "وينك يا علاء؟!"

لم يأت رد.

ركض نحو المكان الذي كان فيه صديقه، ووجده ممدداً... ساقه تنزف
من عند الفخذ، وجهه شاحب، والدم يسيل تحت جسده كما لو أن الأرض
تحاول أن تشربه.

قال علاء بصوت مبجوح: "ما أخذت ولا سلة... ولا حصلت على أي
كرتونة".

الغنيمة

بقي عماد صامتاً. في اليوم التالي، ذهب وحده.
الساحة لا تزال تفوح برائحة الدم، والجنود يراقبون من بعيد.
أخذ سلتين، إحداهما باسم علاء.
وفي السوق، لم يجد وجهه في المرأة.
جلس يعرض بضاعته على مائدة خشبية، لكنه لم ينادِ، لم يساوم، لم
ينطق.
سأله أحد المشترين: "بكم كيلو الرز؟"
نظر إليه عماد وقال: "بثمان ساق... وببقية ضمير".

يوم الغياب

مرّ أسبوع. مات علاء في المستشفى بعد نزف داخلي لم يتوقف.
ولم يعد عماد إلى السوق، ولا إلى الساحة.
كان يجلس كل مساء على سطح بيته، يشعل سيجارة لم تكتمل، ويراقب
الطائرات تحوم فوق مدينة تبحث عن طحين... لا كرامة.
قال لجدّته التي كانت تمد له كأس الشاي: "بتروا رجله... بس يمكن أنا
اللي خلوني أخرج من جوّ".
ردّت العجوز: "لما الجوع يقتل الرحمة... بتصير كل الأرجل مكسورة، حتى
وهي ماشية".
صمت.

في اليوم التالي، حمل عماد سلة مساعدات، وذهب بها إلى عائلة لا يعرفها.

وترك أمام بابهم ورقة: "هذا ما بقي منّي".

تمت

حين بُتر الجشع

بين الخبز والفراغ

قال كمال وهو يربط كوفيته حول عنقه ويشعل سيجارة قصيرة:
– "الناس رايحة تموت عشان كيس طحين... وإحنا راجعين نكسب عشر
أضعاف!"

ضحك إياد، ضحكة جافة كخشب محترق:

– "خليهم يموتوا. نحن ما جبرنا حدا. هذا رزق، ومين يرفض الرزق؟"
لم يكونا جائعين. لم يذوقا ألم الخبز اليابس، ولا ارتجف جسديهما من
الجوع.

كانا يعرفان الطريق جيداً: يذهبان باكراً إلى مركز المساعدات، يتسللان
بين الناس، يلتقطان السلّتين بطرق يعرفانهما وحدهما، ثم يسلكان
الطريق الخلفي إلى السوق.

وهناك، يبدأ المزاد.

– "كيلو الفول بخمسين! هذا مش فول عادي، هذا فول نجاة!"

– "عدس ضد القهر.. حمّص بطعم الأمان!"

— "سردين يغنيك عن البروتينات، ويجعلك تجيد الطيران فوق المعابر!"
كانا يعرفان الكلمات. يعرفان كيف يحولان ألم الناس إلى فرصة.
لكنهما لم يعرفا الجوع.

تحت سماء لا ترى
في صباح لم يختلف عن سابقه، خرجا كعادتهما، يحملان نوايا البيع
أكثر من نوايا البقاء.
الساحة تكتظ، الوجوه صفراء، العيون محمّلة برغيف مؤجل.
همس كمال: "اليوم لازم نطلع بثلاث سلال. عندي زبونة مستعدة تشتري
كل إشي دفعة وحدة".
ردّ إياد وهو يشير لطائرة استطلاع تحوم: "طمني، هدول بيصوروا بس.
العتمة في القلوب مش في السماء".
لكن السماء لم تكن عمياء.
ضجّ المكان بانفجار مفاجئ. طارت الأجساد كأوراق مبلّلة، وامتلاّت
الأرض بالخبز المدمّى.
هرول الناس في كل اتجاه، إلا كمال... ظلّ ساكناً.
حين اقترب إياد، رأى ما لم يستوعبه أولاً.
الجزء السفلي من جسد كمال لم يعد هناك. كانت ساقه قد بُترت من
عند الفخذ، والدم ينزف كما لو أن جسده كان يصرخ بدلاً عنه.
قال كمال بصوت مكسور كغصن مبلول: "خبر أمي... إني ما جبتش
طحين اليوم".

غرفة بيضاء بضمير رمادي

مرّت أيام. جلس إياد في ممرّ المستشفى، ينظر إلى أصابع قدميه كمن يتأكد أنه لا يزال كاملاً.

ثم دخل الغرفة، حيث يرقد كمال في سرير بارد، يغطيه صمت كثيف.

قال إياد بحنجرة جافة: "ما كان لازم نروح".

رد كمال دون أن يلتفت: "ما كان لازم نبيع الناس".

صمت.

— "كنا أغبياء؟"

— "لا. كنا فقراء من الداخل".

آخر السوق

لم يعودا إلى السوق. لم يعودا إلى مركز المساعدات.

مرّ أسبوع، ثم شهر. الناس ما زالوا يقفون في الطوابير الطويلة، يقامرون بالحياة من أجل وجبة.

لكن كمال وإياد لم يعودا يريان الأمر كما كان.

جلسا ذات مساء عند مدخل خيمة كمال، الرجل بساقٍ واحدة، والصديق بجانبه يحمل كوبين من الشاي.

قال إياد وهو يراقب الغروب: "الغريب... إنو بتروا رجلك، بس حسيت كأنهم بتروا قلبي أنا".

ضحك كمال، ضحكة هادئة حزينة: "يمكن... كنا نمشي بساقين من الطمع. لما فقدت وحدة... صار لازم نوقف".

رفع إياد الكوب: "نخب... آخر يوم في السوق".

رفع كمال كوبه، وقال بهمس: "ونخب... آخر فرصة ضيعنا فيها قلوبنا".

تمت.

العودة الأخيرة

حين أعلنت السماء الحرب، لم يعد الوقت وقت التفكير. أصوات الطائرات لا تترك للذاكرة فسحة كي تكمل صورتها. خرجوا، كما يُنتزع الجذر من التراب، حفاة الذاكرة، مذهولين، يحملون بقايا منازلهم في أكياس بلاستيكية.

قالوا إن المنطقة لم تعد آمنة.

قالوا: اتركوا كل شيء، ورحلوا.

ورحلوا.

لكن الذاكرة لا ترحل سريعاً. بعد بضع خطوات، التفتت امرأة خلفها، تذكرت دواء ابنها، فردة الحذاء الوحيدة التي تصلح للشتاء، صورة زفافها.

ورجع رجل مسن، نسي أوراق تسجيل البيت "الطابو" والمفتاح لا ينام إلا وهو على صدره.

وعاد شاب، يبحث عن دفتر أخته الصغيرة، فيه رسومات بيتهم الذي كان.

ما إن تقترب أقدامهم من العتبة، حتى تنهض من فوقهم الزنابير الحديدية - كواد كابتر ترقب من فوق، تصمت أولاً، ثم تهوي كالموت المفاجئ.

هم لا يرون الطائرات، لكن الطائرات تراهم. في إحدى الأزقة، بقيت حقيبة مدرسية مفتوحة، أوراقها ترفرف تحت أنقاض سقف منهار. أحدهم عاد ليأخذها. لم يعود.

تمت.

الطريق إلى المذبح

كانت الشمس بالكاد تشرق، ومع ذلك كان الطريق إلى نقطة التوزيع يغصُّ بالبشر كأنهم سرب من النمل يندفع نحو شيء لا يرى. قال عاصم وهو يرفع كوفيته عن أنفه: "اليوم لازم ناخذ سلتين كبار. سمعت في رز و"صلصة" معجون طماطم".

رد عليه حسام، وهو يمشي واضعاً يده على سكين صغيرة داخل جيبه: "بس بدنا نوصل أحياء، مش مهم شو في بالسلة".

مرّاً بين الحشود، تناثرت صرخات النساء وبكاء الأطفال، ورائحة الدم البعيد تفوح من جهة الغرب، حيث قُتل بالأمس أربعون جائعاً كانوا يحاولون حمل كيس دقيق.

لكن عاصم وحسام نجيا. لا إصابة، لا شظايا، فقط وجوه مغبرة وأجساد مرتجفة من الزحام

السوق الجائع

عادا في ظهر اليوم، يتمايلان من التعب لكن الأكياس على ظهريهما كأنها كنوز فرعونية. لم تكن نيتهما الأكل، بل البيع. جلس عاصم تحت مظلة ممزقة، وفتح الكيس الأول: "كيلو العدس بخمسة وخمسين شكيل. هاي نوعية ممتازة!" صاح حسام من بعيد: "بأربعين! كيلو العدس بأربعين! واللي ياخذ كيسين بخصم له!" تجمهر الناس، واختلطت النداءات بالشتائم، ثم نظرات حادة، ثم شتيمة مباشرة، فقهقهة مرّة.

عاصم نهض واقترب: "ليش بتنزل بالسعر؟ انت هيك بتقتلني!" رد حسام ساخرًا: "لو ما كنت طماع، ما كنت بتنزل السوق أصلاً!"

الدم الرخيص

لم يكمل عاصم الحديث. أخرج الموس الكباس ذات النجوم الثلاثة من جيبه وصفر له الهواء. حسام لم يتأخر هو الآخر، فهو يحمل موسا شبيها، أخرجه من جيبه ورفع يده للأعلى واندفع. صرخ الناس، تساقط الباعة، تقهقر الزبائن. أمسك أحدهم يد عاصم، والآخر أمسك حسام. لكن الدم سبق الجميع. طُعن عاصم في فخذه، جرح حسام في صدره. كان الدم أكثر من العدس والحمص، بل أكثر من الطحين، أكثر من صبر الناس.

كُلُّ في سريره

في المستشفى، رائحة المعقمات والبودرة الطبية تختلط ببخار الصبر. كان عاصم يئن، ينظر إلى السقف الرمادي، ويفكر: "كل هالدم... عشان علبة فول؟"

وفي غرفة قريبة، قال حسام للممرضة التي بدّلت شاش صدره: "متى بتقدر نرجع نبيع؟"

ردّت بجمود: "يمكن بعد ما تطيب... أو لما تصيروا تبيعوا الرحمة".

باب الغوث مغلق

مرّ أسبوع. عاد الناس إلى نقطة التوزيع. لكن عاصم وحسام لم يعودا. لم يعد لديهما قوة. لم يعد لديهما بعضهما. لم يعد لديهما سوق. وقفوا يومًا بعيدا، يراقبان مركز المساعدات الأمريكية، دون سلال، دون أكياس، دون دم، فقط بنظرات طويلة، يشربها الصمت. قال عاصم هامسًا: "بعنا حالنا قبل ما نبيع البضاعة". رد حسام دون أن ينظر إليه: "والسوق اشترى... بس ما دفع الثمن".

تمت.

أبناء الجوع

سوق لا يشبه السوق

لم تكن تلك "سوقاً" بالمعنى المعروف.

كانت بسطات عشوائية مفروشة على الإسفلت المحترق، بعضها على كرتون ممزق، وبعضها على حواف الركام، تُعرض فوقها أكياس طحين وسردين وعدس وفول، كأنها غنائم لا طعام.

الشمس لا تسطع هنا... الغبار أشد إشراقاً.

وقف "رأفت"، شاب في العشرين بلا لحية ولا ظل، خلف بسطته وهو يصيح:

"- رز بخمسة وخمسين، بس للعملة النظيفة! الورقة المهترئة ما بتمشي هان! "

أشعل سيجارة وسحق علبة سردين فارغة بقدمه، ثم بصق جانباً وقال لجاره:

"- شايف هالعجوز؟ إجا يشتري بعشرين شيكل قديمة. فكّرني وكالة غوث!"

ضحك الآخر، وكان يحمل موس في حزام خصره، وقال: "كان لازم تفرجيه الموس. هيك بيّفهم".

لا أحد هنا يرفع صوته احتجاجاً.

الكل خائف، أو صار مثلهم.

لا ثمن للكرامة

جاء طفل، لم يتجاوز العاشرة، يلبس شبيشاً ممزقاً، ويحمل بيده عملة ممزقة ملفوفة بشريط لاصق.

قال الطفل بخجل: "عمو... بدي سردين لأختي. مريضة من امبارح". نظر إليه رأفت، ثم أمسك بالورقة ورفضها في الهواء: "شايفين الورقة؟! هاي بزمان قبل السابع من أكتوبر كانت تنفع. الآن؟ ما بتنفعش حتى للحمام!"

ثم مزقها ورمائها، وصفعه على قفاه. بكى الطفل وركض، لكن أحدهم ضحك وقال: "بكر ابيكبر... وبيصير واحد منّا".

زمن السكاكين
لا أحد يبيع هنا دون سكين أو شفرة أو مشرط
الخصومة على الأسعار، والمشاجرات تبدأ من "شيكال" وتنتهي بغرز في البطن.

في مساء ذلك اليوم، خفض أحد الباعة سعر العدس.
رأفت لم يحتمل.
أمسك موسى، واندفع وسط الزبائن، يصرخ: "بدك تكسر السوق يا ابن ال...؟"

لم يكمل.
انغرزت شفرة في كتفه من الخلف.
أمسك كتفه والدم ينزف، لكنه لم يسقط.
صرخ من الألم والذهول: "مين؟! مين الحقير؟!"
رد صوت من الخلف: "ما في حقير هان... كلنا أولاد الجوع".

تمت.

نقود لا تصلح للنجاة

الورقة التي لا تأكل

وقف "جابر" تحت شمس يوليو، يلوّح بورقة نقدية مشقوقة من المنتصف. "عشرين شيكل يا عمّي، بس بدّي رغيفين!" هزّ البائع رأسه بقسوة: "ورقتك فش إلهها قيمة... خليها تتسلّى مع الريح". التفت جابر، باحثاً عن بسطة أخرى، لكنه واجه نفس النظرة: ازدراء، اشمئزاز، رفض.

حتى الطفل الواقف في طابور البيض قال همساً: "هاي الورقة كان ممكن تجيب خمس علب سردين زمان... اليوم ما بتجيبش كيس نايلون". جابر موظف. يتقاضى راتبه من صرّافٍ ينهش الراتب بنسب تفوق جشع اللصوص.

في بداية الحرب، كان يقتطع 25%. اليوم، صار يأخذ 40%. وغداً؟ سيأخذ ما تبقى من الكرامة.

مال لا يُطعم

جلس جابر على رصيف مكسور، وأخرج بقية نقوده. ورقة فئة خمسين، مغسولة، ممزقة من الزاوية، ملفوفة بلاصق شفاف.

عشرون شيكلاً ملوثةً بالزيت.
عشر شيكل معدنية قديمة ليس إلا
وورقة مئة شيكل قديمة، يُقسم كل بائع بأنها مزورة، رغم أنها خرجت
من ماكينة الصراف.
اقترب منه صبي يحمل سلة خبز.
قال: "بدك تشتري؟"
ردّ جابر بمرارة: "معي فلوس... بس ما حدا بيعتبرها فلوس".
ضحك الصبي وقال: "خليهم يشتروا لك هواء".
ورحل.

الشبح المسمّى صراف
في الزقاق الضيق، يقف صراف اسمه "أبو سليم"، يجلس تحت مظلة
زرقاء ويكتب الأرقام على دفتر كأنه يخط آيات مقدسة.
قال لجابر: "بدك راتبك؟ تمام... بدك كاش؟ بخصم 45%، واليوم بس،
بكرا بنرجع لـ50%".
صرخ جابر: "حرام! أنا بشتغل، مش بشحد!"
رد الصراف بهدوء مرّ: "في الحرب، الكل بشحد... حتى الحكومة".
ناول جابر رزمة نقود ورقية كأنها خرقة قماش ميته.
قال وهو ينظر إليها: "هاي مش فلوس... هاي شهادة وفاة".

المزاد اليومي للكرامة
في السوق، أصبحت النقود تُفحص أكثر مما تُعد.

البائعون يرفعونها للضوء، يشمونها، يقلبونها، ثم يقولون:
"ما بتمشيش،- مخروقة، مخرومة، مخزوقة - خليها تنام عندك".
الناس بدؤوا يتعاملون بـ"الجيد من الفلوس" فقط.
كأن هناك نقوداً تُولد راقية، وأخرى تُدفن وهي في الجيب.
سيدة كانت تبكي لأن البائع رفض نقودها.
رجل صرخ وهو يرمي الرغبة: "هاي مش معاملة! هاي حرب ثانية!"
وجابر؟ كان يجلس تحت ظل كومة خردة، يعدّ نقوده، ويقسمها: فئة تُقبل،
وفئة تُرفض، وفئة مجهولة المصير.

خريطة الجوع

جلس جابر مع جاره "زياد"، قال له: "أنا بشتغل، بس مش قادر أطعم
أولادي... كيف اللي ما بشتغلش؟"
قال زياد: "الفلوس مش مشكلة. الحرب خلت كل شيء بلا طعم. حتى
النقود صارت تشمّ ريحة الخوف وتنهار".
ثم أضاف: "إحنا بدناش مساعدات، بدنا نظام يحمينا... مش صراف
يذلّنا".

مرت طائفة في السماء، ولم يرفع أحد نظره.
قال جابر ساخراً: "الطائرات تقصف، والصرافين ينهبوا، والبائعين
يرفضوا فلوسنا... مين اللي بيقتلنا بالضبط؟"

موت الورقة

ذات يوم، أُعلن عن "ورقة نقدية جديدة"، ذات جودة، مقاومة للدموع والماء.

احتفل البعض.

لكن جابر نظر ليد، حيث تمسك ورقة قديمة، وقال: "الناس نفسها ما عاد عندها مقاومة... شو بتقيد ورقة بلا قيمة في جيب خاؤ؟" ومشى.

تحت قدميه، كانت هناك ورقة نقدية مهترئة، داستها الأقدام، ومزقتها العربة.

مرت دون أن يلتفت أحد.

كأنها لم تكن مالاً يوماً.

كأنها لم تكن شيئاً أبداً.

تمت

قهوة بلا قهوة

رائحة لا تُقنع

في السوق الشعبي العتيق، حيث الوجوه شاحبة والجيوب خاوية، كان "أبو فارس" يفتح بسطته الصغيرة قبل شروق الشمس، يرش قليلاً من القهوة المطحونة على حافة الطاولة، ليغري المارة برائحتها. لكن ما في الكيس... لم يكن قهوة.

"شو هاي؟"

سأله رجل ملتج، بيده إبريق نحاسي قديم. ابتسم أبو فارس وقال وهو يشير إلى الكيس المفتوح: "حمص محمّص مع حبّ هان... بنكهة القهوة!" ضحك الرجل: "يعني كذب بنكهة صدق؟" ردّ أبو فارس وهو يفتح يديه: "مش أنا اللي خربت الدنيا... الحرب هي اللي سوّت فينا هيك".

الغش الشريف

في الزاوية المقابلة، كانت "أم خالد" تبيع بهارات ملفوفة بأكياس شفافة، وعينها على حركة أبو فارس. قالت لجارتها: "هو بيع حمص محمّص بيقول عنه قهوة... وأنا بيع عدس ملوّن وبقول عنه فول مصري!" ردت الجارة وهي تضحك: "زمان كان الغش حرام... اليوم صار وسيلة نجاة".

ثم اقترب منهما رجل في الخمسينات، قال: "يا جماعة... وين ممكن
الآقي القهوة الأصلية؟ نفسي أشرب فنجان يوقظ القلب".
قالت أم خالد: "القهوة الأصلية صارت حلم... مثل الكهرباء، مثل البحر،
مثل الأمان".

الغلاء والكذب

جلس أبو فارس في الليل يعدّ أرباحه.
الكيس الكبير من الحمص كلّفه نصف ثمن كيس قهوة حقيقي.
ومع رشة حب هان، صار الزبون يحلف أنه يشرب قهوة أصيلة.
دخل عليه ابنه الصغير "رامي"، وسأله: "بابا... أنت ليش بتغش الناس؟"
تجمّد أبو فارس.
قال بصوت منخفض: "أنا ما بغشهم يا رامي... أنا بخليهم يحلموا".
"بس أنا شربتھا وما عجبتني!"
"مش مهم تعجبك، المهم تشبه إشي بتحبه".
سكت الطفل، ثم قال: "يعني كل شي اليوم صار تقليد؟ حتى الأكل؟"
أبو فارس لم يجب.
فقط أطفأ النور.

فنجان من الوهم

جلس "مروان" مع أصدقائه في خيمة من القماش، بعد يوم طويل في
طابور الإغاثة.

صَبَّ لنفسه فنجاناً من القهوة المزعومة، ثم قال: "أقسم بالله، أن طعمها لا علاقة له بالقهوة... بس نفسي أصدّق إنها قهوة".
قال صديقه: "هو الحمص صار ينقذنا... لأنه لا يوجد قهوة في أي مكان. ضحكوا.
ثم قال أحدهم: "إيش ضل صادق؟ الخبز فيه رمل، المي فيها صدأ، والقهوة فيها عدس".
ثم صمت. وتابع: "بس على الأقل في صحبة".

النكهة الأخيرة

في السوق، بدأ بعض الناس يشتكون. "هاي مش قهوة! طعمها تراب!"
"الحمص ببوجع بطني!"
"بدنا الأصلي، ولو نشترى ربع كيلو في الشهر!"
لكن ما من بائع يملك الأصلي.
لا أحد يستطيع.
حتى أبو فارس صار يهمس لنفسه: "اللي ببيعه هو الطعم"...
في المساء، جلس على الأرض بجوار بسطته.
مد يده إلى إبريقه وسكب فنجاناً.
ثم قال بصوت مبحوح: "يا رب، ولو مرة واحدة، أشرب قهوة... قهوة عن جد".
لكن الطعم نفسه. والرائحة نفسها. والكذبة، كما هي... دافئة.

تمت.

الوجوه الهائمة

الاصطدام

في شارعٍ ضيقٍ مغطى بالغبار، كانت "رُبى" تسير بخطى متردة،
تصطدم بجسدٍ ثم بجسد، ولا تعتذر.

هي لا ترى.

لا لأن عينيها مغلقتان، بل لأن قلبها انغلق يوم سقطت القذيفة على
البيت، ومات الجميع إلا هي.

امرأة اصطدمت بها وسقطت: "وين عيونك؟"

لم ترد رُبى، فقط مسحت على ثوبها الممزق ومشت.

المرأة كانت تحمل خبزاً ناشفاً وطفلاً ساكن الوجه.

وحين التفتت تبحث عمّن صدمها... لم تجد شيئاً، سوى ظهر رُبى يتلاشى
مع الزحام.

لا أحد يرى أحداً

"سعيد" كان يبحث عن أخيه.

كل صباح يخرج إلى السوق، لا ليشترى، بل ليمدّ عنقه في الزوايا، ليراقب
من بين الوجوه.

كان يهمس لنفسه: "ممکن يكون هايم زيي... ناسي اسمه... ناسي
طريقه".

مرّ بجانب رُبى ذات مرّة، ولم يلحظها.

هي الأخرى مرت بجانبه ولم تلتفت.

جميعهم كانوا يسرون داخل دوائر من الغياب، كأن الشارع بحرٌ من الظلال، لا أحد يرى أحداً.

حوار المجهولين

تحت شجرة ميتة على حافة السوق، جلس رجل كهل، اسمه "أبو خليل"، بجانب شاب عشريني لم يكن يعرفه.

قال الرجل: "بتعرفني؟"

رد الشاب: "لا".

سكت قليلاً ثم سأله: "وانت؟ بتعرفني؟"

قال أبو خليل: "والله ما بعرف حالي أصلاً".

ضحكا.

ضحكة متقطعة، مريضة، تشبه صوت تنفّس من بقي حياً خطأ.

قال الشاب: "كنت متجوز... قبل الحرب. ما بعرف وين راحت".

قال أبو خليل: "أنا كنت أب، بس نسيت اسم ولادي".

ثم أضاف: "ما ضل عقل يتذكّر... الحرب محت الذاكرة".

جوع

في الزاوية، صرخت طفلة: "ماما بدّي أكل!"

فقالت أمها دون أن تلتفت: "احكي مع أبوك".

قالت الطفلة: "بابا مات".

قالت الأم: "آه... صح..."

وساد الصمت.

طفل آخر حمل رغيماً يابساً كأنه كنز.
ورجل ألقى قطعة نقود على الأرض، لكن لم ينحني أحد ليلتقطها.
الفلس لم يعد يجدي.
والجوع لم يعد مؤلماً، بل معتاداً.
الناس تمشي، تتخبط، كأنهم أشباح تبحث عن ملامح.

مرآة الهواء
مرت رُبي بجانب واجهة زجاجية محطمة لمحل قديم.
انعكس وجهها الملوّث بالغبار، فعادت خطوة إلى الوراء.
"مين هاي؟" همست.
اقتربت.
تأملت نفسها.
أدركت فجأة أنها لا تعرف هذه التي تحدد بها.
"هل كنت جميلة؟"
"هل كان شعري أسود؟"
"وين رُبي القديمة؟"
صورة وجهها المشروخ في الزجاج كانت صورة غزة كلها: مكسورة، صامتة،
تمشي دون عنوان.

لحظة التقاء
سقط سعيد في منتصف الشارع.
من الجوع؟ من الإرهاق؟ من الحزن؟

لا أحد يعلم.
لكن رُبى توقفت.
نظرت إليه.
اقتربت.
همست: "بدك مي؟"
رفع عينيه.
ابتسم.
"أول مرة حدا يشوفني من أسبوعين".
جلست بجانبه.
وراحا يتحدثان، بهدوء، كأنهما التقيا في قهوة من زمن بعيد.
سألها: "مين فقدتي؟"
قالت: "الكل".
وسألته: "وانت؟"
قال: "أنا فقدت وجهي".
ضحكا، ثم بكيا.

الوجوه تعود
في اليوم التالي، كان بعض الناس يلتفتون.
بعضهم صار ينظر في وجه الآخر.
يقول له: "سلامتك"، أو: "ما شفتك من أيام".
بعضهم مدّ يده بورقة نقدية مرفوضة وقال: "كلنا فقراء... بس خلينا
نرحم بعض".

وبين الظلال، كانت رُبى وسعيد يجلسان على حافة الرصيف.
وجوههم لم تعد هائمة كلياً.
فيها شيء من الضوء.
وفي الضوء، تبدأ العودة.

تمت

صفيّر فوق الرأس

الصفيّر الأول

لم يكن حسن يعرف أن صوتاً بهذا الصغر، بهذه الرقة، يمكن أن يزرع
كل هذا الرعب في القلب.
كان يقف عند باب خيمة الإغاثة، يمضغ قطعة خبز يابسة، حين سمع
أول مرة طنين "الكواد كابتير" - لا يشبه صوت الطائرات الثقيلة التي
تهدر من فوق، بل هو أرق، يشبه أزيز نحلة إلكترونية متوترة، لكنها نحلة
قاتلة.

"بتك تك تك تك..."

"صوتها يبقشعر القلب!"، همست أم حسن وهي تسحب طفلها للداخل،
وعيونها تلاحق الخيال الطائر.

لكن حسن لم يتحرك. ظل واقفاً، يتفرّج.

ثم رأى الشر.

طائرة صغيرة لا تكاد ترى، تتدلىّ منها كرة سوداء، تسقط ببطء... ثم وميض، ثم دخان، ثم عواء.
خمسة أشخاص سقطوا في لحظة.
ثلاثة لم يتحركوا، واثنان صاروا يصرخون كأن النار تلدغ أرواحهم لا أجسادهم.
حسن لم يعد يتذكر كيف عاد إلى الداخل. فقط يعرف أن جسده ظل يرتجف لساعات، وأنه في تلك الليلة تبول على نفسه وهو نائم

لا تحب الطائرات

قال الطبيب في المخيم المؤقت: "ابنك بيعاني من رهاب الطائرات".
ضحكت أم حسن بسخرية: "كلنا بنخاف منها، بس شو بدنا نعمل؟"
لكن الطبيب أصر: "حسن حالة مختلفة... بيصرخ إذا سمع صوتها، بيختبئ تحت الأرض، بيرتجف وبيهلوس".
وصار حسن لا يفرق بين طائرة وطائرة. كل ما يطير في السماء صار عدوًا. حتى الحمام، حتى فراشات الليل.
"ماما، في كواد!"

"لا، حبيبي، هاي فراشة".
"لا! بتقتلنا!"، ويبدأ بالصراخ.
أصبحوا يغطون أذنيه بقطن.
وصاروا يخفون عنه الأخبار.
لكن السماء لا تُخفي شيئًا.
السماء تُعلن الحرب بصوتها.

اللعب بالموت

كانت تلك الطائرات تأتي أحياناً وتبقى، لا تقصف، فقط تحوم.
قال أحد الشباب: "بيسلوا حالهم علينا. جيش الاحتلال بيحرب ألعاب جديدة".

وقال آخر: "هاي مش قصف، هاي استعراض. رعب نفسي. بيشفوا مين بيركض... مين بينهار".

وكان حسن يراقب من بين فتحات البطانية المسنودة على أعمدة الخيمة.
رآها ذات مرة تطير خلف امرأة تهرب بين الحجارة، وكأنها تطاردها بلعبة قاتلة.

ضحك الجندي الذي يقود الطائرة، ربما. لكن حسن لم يرَ الضحكة، سمعها فقط، في قلبه.

حين حلقت الفكرة

مرت أيام، وحسن لم يخرج من الخيمة.
ثم جاء الطفل خالد، صاحبه القديم، ومعه جهاز صغير: "بدك تلعب؟
جبت طيارة لعبة".

تجمد حسن.

ثم ارتجف.

ثم ركض.

ركض حتى اصطدمت قدماه بجدار الخزان، وسقط مغشياً عليه.
حين أفاق، لم يكن خالد في الخيمة.

وكان وجه أمه مبلولاً بماء ودمع، ووجه الطبيب يقول بصوت مكسور:
"لازم نطلعُه من هالجو... وإلا حنخره للأبد".

صوت الشفاء

مرّت أسابيع.

ثم شهور.

نُقل حسن مع عائلته إلى مخيم في بلدة الزوايدة، وهي منطقة أقل
استهدافاً.

هناك، كانت السماء صافية لفترات.

وحين تعبر طائرة، كانت بعيدة... لا تُسمع إلا خفيفة.

ومع الأيام، صار حسن يخرج قليلاً.

ثم أكثر.

ثم عاد يضحك، بشرط: لا أحد يذكر الطائرات.

في أحد الأيام، جلس حسن يرسم على الرمل طائرة، ثم مسحها بقدمه.

قال لخالد: "الرسم هاي لازم تندفن".

"ليش؟"

"عشان الطائرة ما تطلع من الرسم وتقتل حدا".

عودة الطنين

لكن الطنين عاد.

في صباح خريفي، أثناء توزيع المساعدات، سمع حسن الصوت ذاته...

"بتك تك تك تك..."

تجمد.

الناس تركض.

الخيام تتمزق.

السماء تضحك من فوق.

صرخ خالد: "حسن! وينك؟!"

لكن حسن لم يركض هذه المرة.

وقف.

رفع رأسه.

وبكى.

قال: "خلاص... خذوني... بس لا تقتلوا خالد".

ثم أغمي عليه، وصوته الأخير كان رجاءً: "خلوا السماء تتركنا بحالنا"...

الصمت في الأعلى

نُقل حسن إلى مشفى ميداني.

قال الطبيب: "عنده انهيار عصبي كامل... لازم علاج نفسي طويل".

قالت أمه: "بس هو ولد... صغير... ليش كل هالخراب براسه؟"

لم يجبها أحد.

وفي الليل، وبينما كانت الطائرات تحلق، كان حسن ينام تحت الأرض،

داخل حفرة صغيرة حفرها بنفسه.

وفي الحلم، كانت السماء صامتة.

وكان الطنين قد اختفى.

وفي الحلم، كان يرسم طائرة من ورق... ثم يمزقها

تمت.



أصابع من سكر

أين اختفى البائع؟

في أول أيام الحرب، خرج "مالك" ذو الستة أعوام يبحث عن "أبو نبيل" بائع الحلوى المتجول.

طرق باب بيت جده في المخيم وسأل ببراءته المعتادة: "سيدو، وينه أبو نبيل؟ ما إجا اليوم؟"

الجد نظر إلى السماء الرمادية، ثم إلى الطفل، وقال: "يمكن راح يرتاح شوي... تعبان".

لكن الطفل لم يقتنع، فعاد في اليوم التالي، وفي الذي بعده، حاملاً بضعة عملات ورقية مهترئة خبأتها له أمه تحت وسادته.

وبعد أسبوعين، لم يعد يسأل.

رغبة معلقة على المروحة

فوق سريره، علق "رائد" ورقة بيضاء كتب عليها بخط غير متزن: "بدي شوكولاتة، بدي سنيكرز، بدي شبس أحمر".

علّق الورقة على مروحة لا تعمل، لأنها بلا كهرباء، ثم نام تحتها كل ليلة، كأنها نجمة يتمنى أن تسقط.

أخته "ليان" كانت تسمعه يهمس في الليل: "لو في طيارة بترمي حلوى بدل القنابل... بكون أحسن".

وفي إحدى الليالي، نهض فجأة، مزق الورقة، ورمى القصاصات في العتمة. قالت له أخته: "ليش هيك عملت؟"

أجاب بهدوء: "لأن المروحة ما رح تشتغل... ولا إشي رح ينزل غير الدخان".

شوكولاتة تحت الوسادة

في منتصف الحرب، وجدت الأم "أم مالك" قطعة شوكولاتة صغيرة، مغلفة بورق فضي، بين أكياس التموين القديمة. نظرت إلى أولادها الثلاثة وهم نائمون. قلبها يتقطع: "لو قسمت الشوكولاتة... بتروح وما تشبعهم. لو أعطيتها لواحد... بيزعلوا. لو خبّيتها... بظل أشوفها بعيني". في النهاية... وضعتها تحت وسادة مالك، وهمست في أذنه: "حلمك الليلة رح يكون حلو". في الصباح، لم يأخذها مالك... فقط رفعها، نظر إليها، وأعادها تحت الوسادة. وقال: "ماما... خليها ليوم العيد... إذا بيرجع".

طفل في السوق

دخل "يزن" السوق مع أمه. مرّ من أمام بسطة مهجورة للحلويات. التقط كيساً فارغاً مكتوب عليه "كورن فليكس"، وشمّه، كأنه وردة ذابلة. قال لأمه: "ما بدّي... بس بدّي أتذكر الطعم". كانت الأم تحمل الخبز على رأسها، ودموعها على خدها. قالت: "كان المفروض أنتوا تكبروا على الفرح... مش على رائحة الغياب".

حين يصمت الطفل

بعد أشهر، لم يعد الأطفال يسألون عن الحلوى. لم يعودوا يكون في الليل لأنهم لم يأكلوا "شيبس"، ولا يركضون خلف الباعة، لأن الباعة لا يأتون

صاروا يسألون أسئلة أكبر: "بابا، متى نرجع على بيتنا؟"

"-ماما، لو أجت الطيارة، وين نروح؟"

"-سيدو، مين مات اليوم؟"

وفي أحد الأيام، سأل أحدهم بهدوء: "لو انتهت الحرب... في حلوى؟" فردت أمه: "إذا انتهت الحرب... كل شيء ممكن".

أصابع من سكر

كتبت المعلمة في الدفتر: "كانوا يطلبون سكاكر... فصارت أصابعهم نحيلة كعود الحلوى.

كانوا يطلبون شوكولاتة... فصار قلبهم هشاً مثلها.

وكانوا يركضون نحو البائع... والآن يركضون إلى الملجأ".

ثم كتبت: "لكنهم لم يتوقفوا عن الحلم... لأن السكر قد يغيب عن السوق، لكنه لا يخرج من قلب الطفل أبداً".

تمت.

أكياس الماء

عطش

كانت الشمس تضرب المخيم كالسياط. وقف سالم أمام دكان صغير، يتأمل الثلاجة المهترئة التي وضعت بجانبها لافتة بخط مرتجف: "ماء بارد... في أكياس".

اقترب سالم، شعر أن حلقة يشتعل.

"-بكم الكيس يا حاج؟"

رفع البائع رأسه، رجل خمسيني نحيل، جلده مسمر كالأرض المحروقة.

"-ثلاثة شواكل".

"-ثلاثة؟! قال سالم كأنه تلقى طعنة. "هذا ماء يا رجل، ليس عصيراً مستورداً!"

ابتسم البائع ابتسامة متعبة: "والله لو شفت شو بنعمل عشان نوفر لك هالكيس، ما قلت هيك".

ماء في النايلون

أشار البائع إلى صف من الأكياس المربوطة بعناية.

"-نملأها من صهريج جابوه أمس، نغلي الماء مرة... مرتين... عشان ما يمرض حد.

وبعدين نربط كل كيس ونحطه في الثلاجة.

والله لو ما عندي ألواح طاقة شمسية، ما قدرت أبيعلك هالبرودة بثمان".

مسح العرق عن جبينه وأكمل: "تعرف؟ حتى الكيس نفسه صار غالي.
النايلون أثنى من المي هالأيام".

صفقة عطش

أخرج سالم قطعة نقدية باهتة من جيبه، كان يتردد بين أن يشتري كيس
الماء البارد، أو يحتفظ بها لرغيف خبز في المساء.
انتبه البائع لتردده وقال: "يا ابني... عطشك أهم من جوعك. الخبز
تلاقيه ناشف وبكرا الله بيفرجها. بس عطشك... العطش ما بينتظر".
ناولته كيسًا مثلجًا وقال: "خذه... اشرب، وبعدها خليه علي حسابي لو ما
معك".

رشفة حياة

جلس سالم على حجر قرب الدكان. غرس أسنانه في طرف الكيس،
فانفجر بردٌ مفاجئ في فمه، كأنه يشرب الحياة نفسها.
راقب الأطفال المتجمعين حول الدكان، يحدقون في الأكياس داخل
الثلاجة بعيون ملتهبة.

عاد إلى البائع وقال: "هات كيسين كمان... لهدول الصغار".
ضحك البائع وقال: "بتعرف... المي عمرها ما كانت تجارة مربحة... بس
بهاالزمن صارت أغلى من الدم".

حكاية كيس

قبل أن يرحل، التفت سالم إلى البائع: "شو اسمك يا حاج؟"

"-الناس هون بيسمونني أبو المي".
"-وأنت؟ بتشرب من هالكيس؟"
صمت الرجل لحظة، ثم قال: "أنا؟... أنا تعودت أشرب من الحنفية...
خلي البرودة للي محتاج أكثر مني".
غادر سالم والدنيا من حوله بدت أكثر عطشًا من ذي قبل...
لكن كيس الماء في يده كان أشبه بوصية: "في الحرب... كل رشفة حياة".

تمت.

الطاحونة السوداء

رغيف من دم

"خمسة وثلاثون شيكلًا؟!" صرخ الرجل بعينين غارقتين في الدهشة، وهو يحدّق في كيس الطحين الصغير أمامه.
أجابه البائع ببرود: "وإلا؟ إذا ما عجبك روح دَوَّر برة... كيلو الطحين اليوم بعشرة دولارات، وإذا مش عاجبك روح كُل تراب".
وقف الرجل في مكانه لحظة، كأنه تلقى صفعه. كان جائعًا، وأطفاله ينتظرون رغيفًا من أي نوع، لكن ثمن الكيلو كان أكبر من أن يتحمّله.
أدار ظهره ومشى بخطوات ثقيلة، وفي قلبه إحساس أن الخبز صار حلمًا لا يليق إلا بالأغنياء.

مركز الموت

على بعد أمتار، كان مركز المساعدات الأمريكية يعجّ بالناس. يتدافعون مثل أمواج البحر، يصيحون، يدفعون، يركضون، ثم فجأة... دويّ رصاص.

صرخ أحدهم: "انسحبوا!"

لكن الحشود ظلت في مكانها، تلتقط الأكياس التي رُميت من الشاحنات كفتات.

في زاوية بعيدة، وقف شابان بملابس رثة، يراقبان الفوضى. همس أحدهما للآخر: "الليلة بنرجع وبنحمل خمس شوالات، كل شوال بألف شيكل بالسوق. رزق ربنا".

ضحك الآخر ضحكة جافة وقال: "رزق؟! سرقة في وضح النهار وتقول رزق؟"

"-سميّه اللي تسميّه... آخر اليوم الخبز للي بيدفع، مش للي بيستحق".

سوق الكذب

في السوق، تترتب أكياس الطحين مثل الغنائم على أبواب الدكاكين. اقترب أبو عادل - تاجر عجوز بوجه مشبع بالتجاعيد - من أحد الباعة: "يا ابني، هذا الطحين مساعدات. الناس بتاخده ببلاش. ليش بتبيعه بألف شيكل؟!"

قهقهه البائع وهو يمسح العرق عن جبينه: "والله يا عمّ لو بعت بأقل من هيك بأخسر! هاي التجارة كلها خسرانة!" رفع يده وأقسم يميناً مغلظاً. لكن أبو عادل عرف أن كل كلمة كانت كذباً، وأن اليمين لم يكن سوى قناع يُخفي به الطمع.

الجوع يفضح الجميع

في الليل، جلست أم يوسف بجانب أطفالها الثلاثة. أخرجت من تحت الوسادة قطعة خبز يابسة، قسمتها بينهم وهي تقول: "اصبروا يا حبابي... بكرى يمكن ربنا يفرجها". كان يوسف، ابن العاشرة، يراقبها بصمت. ثم قال فجأة: "ماما... البائع اللي أقسم إنه بخسر إذا باع رخيص... يعني هو كذاب؟"

تلعثمت الأم، لكنها أخيراً قالت: "يا بني... الحرب مش بس بتكشف وجوه
الناس... الحرب بتصنع وحوش كمان".

طاحونة سوداء

في اليوم التالي، عاد الرجل نفسه إلى السوق. وقف أمام البائع الذي لم
يتهاون في رفع الأسعار.

"-كم صار الكيلو اليوم؟"

"-مئة وخمسة شكيل... ولسا بيضل رخيص!"

ضحك الرجل ضحكة مرة، ثم قال: "يا ابن الحلال... صرنا نشتري
الطحين بدمنا".

لكن البائع لم يرد.

فالحرب كانت طاحونة سوداء، تدور بلا توقف، تطحن الناس والرحمة،
وتترك الطحين كرماد... لمن يستطيع أن يدفع ثمنه.

تمت.

المتفرجون

سوق الفرجة

لم يكن سوق "فلسطين" الشعبي في زمن الحرب مكاناً للبيع، بل أصبح أشبه بمتحف من دون زوار يدفعون، أو سرك بلا بهلوان. أبو العبد وقف عند باب السوق ينادي: "تعالوا شوفوا... خيارة ب 10 شيكل! حبة بطاطا ب خمسة شيكل! موزة يُمنع لمسها إلا بموافقة أمنية!" لم يكن أحد يشتري. فقط عشرات، بل مئات يتجولون كأنهم في نزهة. عيونهم تمشي قبل أقدامهم، تتفرّس في كل حبة طماطم، وكل كيس عدس، كأنهم يودّعون ما تبقى من زمن الوفرة. امرأة كبيرة قالت لابنها الصغير: "شوف البندورة.. شايف لونها كيف؟ احفظها، يمكن تكبر وما تشوفهاش ثاني".

عصابة الموز

كان هناك في الزاوية بسطة غامضة، لا أحد يقترب منها إلا برمز خاص. فيها ثلاث حبات موز موضوعة في علبة حليب فارغة. "أبو رشاد"، الرجل المعروف في الحارة بلقب "ملك الندرة"، وقف أمام البسطة وقال: "إحم... جئت أشتري المشمش". ابتسم صاحب البسطة وقال: "عندك رمز الدخول؟" أخرج أبو رشاد نصف قطعة شوكلاتة قديمة، وقال: "هدية من عرس بنتي قبل الحرب". "اتفضل... تقدر تلمس الموزة... ثواني فقط".

البطيخة الأسطورية

في منتصف السوق وُضعت بطيخة. نعم، بطيخة واحدة. عليها ورقة مكتوب عليها: "للعرض فقط."

تجمع الناس حولها كما لو كانت "موناليزا" زمانها. أحدهم سأل: "من وين جابوها؟" آخر قال: "هاي طلعوها من قصف بيت أمير، طلعت سالمة من بين الأنقاض!" طفل صغير سأل أباه: "بابا، ليه البطيخة ما حدا بيشتريها؟" الأب نظر إليها، ثم إليه، ثم إلى السماء، وقال: "لأنها من طبقة ما بتخصناش، هاي بطيخة نخب أول... للناس الأغنياء."

أرغفة وهمية

في بسطة صغيرة جلس "أبو جهاد"، يبيع خبزاً "وهمياً". نعم... يفتح الكيس، ويقول: "هاي رغيف... طازج.. طعمه رائع، رائحته تصحّي الميت... بس مش للبيع، فقط للشم". الناس تصطف لتشم الرغيف. يأخذونه، يغمضون أعينهم، يشهقون كما لو أنهم استنشقوا الربيع. شاب يهمس لفتاته: "لو تزوجنا... بقدر أجييلك رغيف كل أسبوع تشميه". تبسم وتقول: "أنت كريم والله".

أبو العبد والفراغ العظيم

أبو العبد عاد للبيت في آخر النهار. لم يبع شيئاً. ولم يشترِ أحد.

قال لزوجته وهو يخلع شيشبًا مهترئًا: "يا أم العبد... إحنا مش عايشين... إحنا بنتفرج على الحياة من برا الزجاج".
هي كانت تقلب الماء بالملقعة داخل قدر فارغ، قالت: "المهم الزجاج ما ينكسر... لأن بعده فيش غير الحيط".
جلس على الأرض، نظر لأولاده، ثم إلى الحائط، وقال: "خلص... بكرا بطلع أبيع فرجة!"
"-كيف يعني؟"
"-بدي أوقف أنا وولادي على بسطة... ونكتب: شوفوا عيلة جوعانة... ببلاش!"

الباذنجانة المدعومة

في منتصف السوق، ظهرت فجأة بسطة صغيرة محاطة بالناس، وعلى رأسها لوحة مكتوب عليها: "باذنجانة واحدة لكل عائلة... مدعومة من الأمل!"
تجمع الناس وكأن نيزكًا هبط من السماء.
إحدى النساء دفعت امرأة أخرى وقالت: "أنا سبقتك! أنا جيت من قبل الفجر! إلي الأولوية!"
ردت الأخرى وهي تمسك بعباءتها الممزقة: "أنا حامل بتوأم، الباذنجانة إلي! أرببهم على ريحتها!"
تدخل شاب من الخلف: "أصلاً الباذنجانة حقيقية ولا بلاستيكية؟ بلاش نكون بتخايق على دُمية!"

اقترب طفل صغير بهدوء، لم يقل شيئاً، فقط مسح عليها بيده، وهمس:
"يمكن ما نرجع نشوفك... مع السلامة".

أغنية للبرتقال الممنوع

في زقاق ضيق، وقف رجل نحيف يعلق قشر برتقال مجفف على حبل
غسيل، ويرش عليه قليلاً من الماء كل يوم، كي "يظل لونه زاهياً".
قال له أحد المارة: "ليش بتعمل هيك؟"

رد بنغمة حزينة: "عشان أختي الصغيرة تتخيل إنها برتقالة حقيقية".
كانت أخته تجلس تحت الحبل، تهمس وهي تغني: "برتقالة... يا شمسي
الصغيرة... لو أكلتك بتصيري ذكرى مرة... خليني أشوفك هيك... من
بعيد... وأحلم فيكي كل ليلة".

توقف الناس، لم يتكلم أحد. حتى الهواء مرّ على استحياء.

اللس الذي يسرق للفرجة فقط

في الليل، كانت الإشاعات تتحدث عن "اللس الشريف"، رجل مجهول
يقتحم البسطات، لا ليسرق... بل فقط ليشم، يلمس، ثم يُعيد كل شيء
مكانه.

في إحدى الليالي، أمسكت به امرأة تباع الزعتر، وسألته: "ليش هيك
بتعمل؟"

أجابها وهو يضبط كيس السمسم: "بدي أحس إني غني... ولو
لدقيقتين".

"-بس ما أخذت شي!" "لأنني مش حرامي... أنا بس بمارس الشراء بالخيال".

المرأة لم تبلغ عنه... بل في اليوم التالي وضعت على بسطة الزعتر لافتة: "مرحباً بك أيها الغني الحالم... الفرجة مجانية".

الحياة تُفَرِّج

في يوم الجمعة، قررت بلدية السوق تنظيم "فعالية الفرجة الكبرى"، بعد أن تعذر البيع، وانعدم الشراء.

وضعوا لافتات على مداخل السوق كتبوا عليها: "أهلاً بكم في معرض الحياة... الدخول مجاني، الخروج بحسرة".

عرضوا علبة سكر فارغة في صندوق زجاجي، وفوقها ورقة: "آخر سكر شوهد في غزة، رمضان 2024".

وضعوا بيضة مسلوقة على عرش صغير، وفوقها علم أبيض صغير: "هذه البيضة قررت أن تتأى بنفسها عن الفقر".

الأطفال مرّوا يضحكون، الكبار ابتسموا بحزن، العجائز قالوا دعاءً مشوشاً بين الشكر والاحتجاج.

أبو العبد، الذي ظلّ يراقب السوق لأشهر دون أن يشتري شيئاً، صعد على طاولة خشبية مكسورة، وصرخ: "إحنا مش متفرجين... إحنا ناس اتفرجت علينا الدنيا، وقعدت تضحك!"

ضحك الناس... ضحكوا من قلوبهم، من قهرهم، من الجوع الذي صار له وجه، ورائحة، وذكريات.

وضحك طفل وهو يحمل قشرة موز يابس، يقول لأمه: "ماما... لما أطلع كبير، بدي أفتح بسطة فرجة... وأخلي الناس يشوفوا كل إشي ببلاش".
الأم ربتت على رأسه، وقالت: "بس لا تنسى يا حبيبي... تحط كرسي للمتفرجين... تعبوا من الوقفة".

تمت.

رحلة إلى آخر الطريق

المركبة المجروحة

في صباح غائم بالبكاء، وقف "أبو صابر" أمام سيارته التي نجت من القصف... جزئياً.
الزجاج مكسور، الباب الأيسر مربوط بحبل غسيل، العادم مفقود، والمقاعد منزوعة ومغطاة بأكياس خيش. ورغم ذلك، كانت السيارة تعمل.
قال وهو يضرب على غطاء المحرك: "والله يا بنتي، انتي بطلة... لو عندي أوسمة، لأعطيك وسام الجبهة الداخلية!"
جاء أول راكب، يحمل معه دلو ماء وأرغفة خبز ملفوفة في قميص قديم.
"ع العباس يا حج".
"اركب... بس اقعد عالطرف، المقعد الثاني مثبت بالبركة".

المجرور الوطني

مع ازدياد عدد الركاب، ابتكر أبو صابر نظاماً عبقرياً: ربط وراء السيارة عربة زراعية صغيرة بحبل غسيل، أسماها "المجرور الوطني".
العربة تحمل النساء، أكياس الطعام، فرشاة النزوج.
طفل صغير سأل أمه: "ماما، إحنا بنركب سيارة ولا باص ولا إيش؟"
الأم ردت بابتسامة متعبة: "إحنا بنركب الصبر".
في كل مطب، ترتجف العربة ويعلو الصراخ: "اربطوا العيال!" - "الفرشة طارت!" - "مين وقع نعله؟!"

كارتة البنزين

محطة الوقود أقفلت منذ زمن بعيد، والبنزين صار مثل الذهب.
صار أبو صابر يتاجر بمقايضة "الركوب". كل رحلة تساوي وجبة.
"من هنا للكرامة؟ عشرة شيكل، أو علبة فول، أو بطانية، أو طنجرة فارغة... أي شيء".
أوقفه شاب يرتدي نظارة مكسورة، يحمل كتاباً.
" - ما عنديش إلا دعوة من قلبي".
أبو صابر فكر، ثم قال: "اركب... بس تدعيلي أصْلَح المكابح، كل ما ضربت بريك، بشوف جدتي بتضحكي".

البغل الملكي

على الطرف الآخر من السوق، جاء "سعيد البغلجي"، يقود عربته الخشبية بكل كبرياء.

البغل "طوفان"، مشهور في الحارة، له عين واحدة وذيل مشلول، لكن عزمته فولاذ.

سعيد ينادي: "الطريق الطينة، الطريق الرملية، طريق الحفرات والمطبات! طوفان بوصل!"

الناس بدأوا يُفضلونه، خصوصًا أن عربته لا تهتز، ولا تصدر صوت "بوووم" كل خمس دقائق.

قال له أحدهم مازحًا: "والله يا سعيد، هذا البغل لازم نرشحه رئيس بلدية!"

سعيد ضحك وقال: "بس خايف يصير في البلد زحمة حمير".

ازدحام على جبهة الخوف

في طريق وعر شمال المغازي، علقت سيارة أبو صابر في حفرة.

من الخلف، عربية طوفان تنتظر، وعلى الجوانب شباب يسرون مشيًا، نساء يحملن أطفالهن، وعجوز تحمل سلة مليئة بالخبز اليابس.

أبو صابر يصرخ: "ادفعوا معاي! يلا يا جماعة!"

ركاب المجرور، ركاب السيارة، حتى البغل... ساعد.

عندها قال أبو صابر: "شايفين؟ هاي غزة... ما في عنا مواصلات... بس فينا نوصل بعض".

المحطة الأخيرة

في آخر اليوم، عاد أبو صابر إلى بيته المهدم نصفه، وجلس على مقعد بلا أرجل، يتأمل بقايا البنزين في زجاجة ماء صغيرة.

قال لزوجته: "تعبت، بس أوصلت ٤٥ زبون، و٣ نازحين، وجنازة رمزية!"

"- شو طالعك؟"

"- أرغفة ، علبة شاي فيها عشر فتلات ، وبوسة من بنت صغيرة دعتلي

ما أموت".

ابتسم، ونظر إلى مفتاح السيارة، وهمس: "لسه ما خلصنا... بكرة بنكمل

الطريق".

تمت.

سكر الحياة

سقوط مكعب في الظلام

في أحد زوايا خيمة نزوح مهترئة على أطراف خان يونس، جلس "عمّ رباح"، الرجل الذي كان يومًا صاحب مخبز فاخر اسمه "أحلى من العسل"، يحدّق في كوب شاي خفيف اللون كأن أحدهم صب عليه ماء الوضوء.

قال وهو يقلبه ببطء: "يعني هذا شاي ولا صورة أشعة؟" زوجته "أم رباح" صرخت من جهة البطانية المعلقة: "ما تنقّش علينا يا رباح! هذا الشاي حصلناه بعد الوقوف في طابور ثلاث ساعات، بدل ما تقول الحمد لله!"

رباح تنهد: "طيب بس حبة سكر واحدة!" من خلف البطانية خرج ولدهم "جابر" يهمس بسرية وكأنه يتحدث عن أسلحة نوعية: "بابا... بابا... لقيت مكعب سكر ورا الكرتونة تبعت الأدوية القديمة، لونه مصفر شوي بس... حلال؟"

المغامرة الكبرى - عملية "المكعب المفقود"

جابر، ١٤ سنة، قرر أنه لازم يلاقي حل لأزمة السكر. فهو لم يعد يحتمل شرب الشاي "شفاف مثل نية المحتل"، ولا رؤية والدته تُقلب "البسبوسة" بلا سكر.

مع صديقه "غندور"، ابن عمته من جهة المغازي، أطلقا عملية سرية أسموها: "عملية الكريستال الأبيض."

غندور قال له وهو يخطط على كيس طحين فارغ: "أول هدف: بيت الحج سلامة... بقولوا عنده كيس سكر مخبئ تحت الكنبه، مغلف بملاءة أطفال قديمة، مكتوب عليه (أرز مصري)".

جابر: "بس بيته عليه حراسة.. مرته بتحط شوك على العتبة!"
غندور يضحك: "ولا يهملك... أنا لابس جزمة أخويا الشهيد، ما بيأثر فيّ لا شوك ولا غضب رباني".

في سوق البسكوت المسلح
السوق تحوّل إلى غابة سكرية... باعة يحملون أصابع الحلب على رؤوسهم كأنه ذهب، وكل صينية "غريبة" معها مرافق مسلح.
عم رباح، يقرب من بسطة وهو يسأل التاجر: "بكم قطعة الغريبة؟"
التاجر ينظر له ببرود: "بالدولار... حسب نوع السكر... طبيعي؟ برازيلي؟ مهرب من معبر رفح؟"
رباح يبتلع ريقه: "طيب عندك أصابع حلب بدون سكر؟"
التاجر: "آه... بنسميه حلب الذاكرين... ما فيه طعم بس فيه صبر... قطعتين وبتصير تتأمل في الحياة وتبكي".

مذبحة في حفلة ميلاد
في خيمة رقم ٤٣، كان عيد ميلاد الطفلة "ليان". أمها أرادت أن تفاجئها بكعكة.
استخدمت طحين العدس، ودهنت الوجه بعصير شمندر، وحطت فوقه شعيرات مكرونة مسلوقة. لكنها نسيت شيء مهم: السكر.

لما دخلت ليان ونفخت في الشمعة، بدأت البكاء فوراً: - "وين الطعم؟
وين الحلاوة؟ أنا ما بدي عيد ميلاد! أنا بدي سكر!"
تدخل خالها "شادي" حاملاً حبة "كندر" مغلفة منذ ٢٠١٨، قائلاً بفخر:
"بهدية وحدة، هادي الحرب بتنتهي!"
فتحت الطفلة الحبة... فوجدت داخلها: ورقة مكتوب فيها "أكلها غندور
قبل أسبوع، شكراً على تعاونك."

ثورة السكر الكبرى

عم رباح، بعد يأس طويل، خرج إلى الناس في السوق وهو يحمل علبة
فارغة من "نسكافيه" مكتوب عليها: "نريد سكرًا... أو نموت حُفاة من
الحلاوة!"
الشباب بدأوا يتجمعون، يهتفون: "يا تجّار السكر يا حرامية... الشعب
بده حلوى وطنية!"
أحدهم جاء بعضا وكتب على الحائط: "لا سكر... لا هريسة... لا شراب
تمر هندي!"
حتى الشاي نفسه أعلن العصيان، وامتنع عن اللون.
في النهاية، أرسل تاجر من الأنفاق حبتين "مرشملو" كفدية، وعلبة
"كاكاو بودرة" منتهية الصلاحية كإعلان حسن نية.

من سرق السكر؟

تم تشكيل لجنة تحقيق، برئاسة عم رباح، وعضوية غندور، والطفلة ليان
(كقوة معنوية).

بعد تفتيش الخيام، ومداهمة مخازن مخفية تحت الأرض، تبين أن من سرق السكر... كان جابر.

أخذه وخبّاه كي يصنع قالب حلوى ليوم زواجه من بنت أبو رباح. قال وهو يُقاد للمحاكمة الشعبية: "يا جماعة، الحب بدون سكر... جريمة!"

وضحك الناس، وبكى عم رباح، وقال: "لو كنت قتلتي... كنت ساعدتك! عندي إصبع عسل مخبّيه من العيد الماضي!"

تمت.



مرايا المخيم (حكايات النساء في الخيام)

الولد الذي يبيع المرايا

"مرايا للبيع! مرايا صغيرة... مرايا كبيرة!" ، كان صوته يقطع سكون المخيم كالسهم. ولد نحيل لا يتجاوز الثالثة عشرة، يحمل كيساً من القماش فيه بضع مرايا مستعملة. عيناه تلمعان بحلم صغير: أن يبيعهها ليشترى دقيقاً لأمه المريضة.

في المخيم لا يُباع إلا الخبز والماء والملح... فكيف يبيع المرايا؟

أم خليل - ملامح مشوهة

أول من خرجت كانت "أم خليل". امرأة أربعينية، لكن التجاعيد حول عينيها جعلتها تبدو أكبر بعشر سنوات.

أخذت المرأة بيد مرتجفة، نظرت فيها طويلاً ثم شهقت: "هذه لست أنا! من هذه العجوز؟!"

رد الولد مرتبكاً: "يمكن المرايا صغيرة... تصغر الملامح!"

لم تضحك. دموعها انحدرت ببطء.

"- يا بني، كنا نضع المرايا في بيوتنا لنرى أنفسنا، والآن نضعها لنرى ما فعله بنا الجوع والخوف والشمس. أحرقونا قبل أن يموتونا".

أعادت له المرأة، وهمست: "لا حاجة لي بمرايا... يكفي أنني أرى ملامحي في وجوهكم، كلها مرايا للحزن".

أم فادي - أثر المجاعة

جاءت بعدها "أم فادي"، خطواتها ثقيلة كأنها تحمل فوق ظهرها المخيم كله.

أخذت المرأة وحدقت فيها طويلاً.

"- يا الله... وجهي صار كخريطة صحراء! كنت ممثلة... بشرتي كانت نضرة مثل الأطفال. الآن أنظر: وجهي حفر وجبال".
قال الولد محاولاً المزاح: "الجوع يجعلنا خفاً، ربما نصبح طيوراً ونطير بعيداً عن هنا!"

ابتسمت بمرارة: "الجوع يا بني ليس حمية... إنه موت بطيء. لم نذق اللحم منذ شهور، ولا رائحة السمك. حتى السكر اختفى من حياتنا. كيف تبقى الملامح كما كانت؟"

هبة - ملامح الشمس

خرجت فتاة شابة، "هبة"، عشرينية، كانت تُعرف بجمالها في قريتها.
أمسكت امرأة صغيرة، ضحكت فجأة:
"- كنتُ أكره بشرتي البيضاء، أضع المساحيق لأُغمقها... والآن الشمس فعلت كل شيء. صرت كأني امرأة أخرى".
ضحك الولد قليلاً، لكن ضحكتها انطفأت سريعاً.
"- لكن... حتى الضحك صار يجرح هنا. لا أحد يضحك حقاً، كلنا نبتسم لنخفي أننا نبكي من الداخل".

العجوز - مرايا الماضي

اقتربت امرأة مسنة ببطء، كأنها تتكئ على هواء المخيم.
" -يا بني، أعطني مرآة. أريد أن أرى إن بقي شيء من ماضي في وجهي".

أخذتها بحذر، حدقت فيها ثم قالت: "كنتُ أملك مرآة كبيرة في غرفة نومي. كانت تقول لي كل صباح: أنتِ أنتِ. أما هذه... فتسألني: من أنتِ؟" وضعتها على الأرض وهمست: "لو أن المرأة تُظهر الماضي... لأخذتها فوراً".

أم علاء - ملامح الفقد

خرجت "أم علاء" بثوب أسود مهترئ.
" -هاتِ واحدة يا بني".
حين أمسكت المرأة، همست: "كنتُ أنظر في المرآة قبل كل عيد مع علاء... نضحك ونجهز أنفسنا. اليوم أنظر لأبحث عنه في ملامحي. مات تحت الركاب ولم يبق لي إلا وجه يشبهه".
وضعتها بقسوة في يد الولد: "خذها... لا أريد أن أرى قبوراً في وجهي".

ليلي - ملامح الجوع والخوف

ليلي، فتاة في الخامسة عشرة، عيناها واسعتان لكنهما مطفأتان.
" -هل عندك مرآة صغيرة يا عمو؟"
ضحك الولد: "أنا أصغر منك!"

"-أريد أن أرى إن كنتُ ما زلتُ جميلة... قال لي أبي قبل أن يموت: لا تدعي الخوف يأكل وجهك".
نظرت في المرأة ثم أجهشت بالبكاء: "حتى الخوف صار يأكلنا، حتى الجوع يغير ملامحنا... لم نعد نحن".

الولد يتأمل
جلس الولد على حجر، المرايا بجانبه.
"كنت أظن أنني سأبيعها كلها اليوم، لكن يبدو أن المرايا في المخيم تباع الحقيقة... والحقيقة هنا لا يشتريها أحد".

المرأة التي كسرت المرأة
جاءت امرأة شابة، نظرت في المرأة ثم فجأة ضربتها على الأرض فتكسر زجاجها.
صرخت: "لا أريد أن أرى نفسي بعد الآن! لا أريد!"
هرب الولد خطوة للوراء، والنساء تجمعن حولها.
"-منذ رأيت ابني مقتولاً لم أنظر في أي امرأة. هذا الوجه صار لعنة علي".

مرايا الصمت
لم يعد الولد ينادي. وضع المرايا على الأرض، وابتعد قليلاً.
كان المخيم كله يراقب تلك المرايا كأنها توابيت صغيرة.

القرار

عند المغيب، اقترب الولد وقال: "هذه المرايا لكم بلا ثمن. ربما تحتاجون أن تتذكروا أنكن ما زلتن موجودات".
لكن لم تتحرك أي امرأة. كأن المرايا أصبحت عدوًا جديدًا.

المرايا التي لا تُشترى

جلس الولد عند مدخل خيمته وهو يتمتم: "في المخيم، المرايا ليست للنظر... المرايا للوجوه التي رحلت ولن تعود".

تمت.

مراكز الموت

بوابة النذل

لم يعد الناس يسمونها "مراكز المساعدات الأمريكية". في المخيم، اسمها الحقيقي هو: "مراكز الموت".

كانت أم رامي تعرف ذلك جيداً وهي تشد عباءتها الممزقة على جسدها النحيل وتدفع بقدمها التراب المتراكم أمام البوابة الحديدية.

التفتت إلى المرأة بجانبها وقالت بصوت يائس: "اليوم بيحكوا في شحنة طحين وسكر... بس يا رب نلحق".

ردت المرأة وهي تتلفت بخوف: "الله يستر... الشباب اللي واقفين هناك ما بيخلّوا شي يوصلنا".

في الجهة الأخرى، شباب مفتولو العضلات يتجمعون، بعضهم يحمل عصياً وسكاكين. يتبادلون نظرات صامتة، اتفاق غير مكتوب: "نحن أولاً... والباقي إن بقي".

وفوق كل شيء، عيون الجنود تراقب من الأبراج العالية، بنادق جاهزة، تتدخل فقط حين تمتزج الأكياس بالدماء.

العين على الشحنة

جلس سائد، شاب في الخامسة والعشرين، في زاوية بعيدة عن الطابور، يراقب الشاحنات التي تقف خلف البوابة.

همس لصديقه: "إذا وصل السكر... بنطلع بعلبتين كبار، نبيعهم بمية دولار".

ضحك الآخر: "وأملك؟"

شد سائد قبضته: "هاي الشغلة إلها... عارف أنا شو بعمل. إذا ظلّيت واقف زي النسوان هان، راح نرجع بخفي حنين".
لم يكن سائد لَصًا بالفطرة. لكنه منذ عامين بلا عمل، وأمه مريضة، وإخوته الصغار ينامون على الخبز اليابس.
الجوع يحوّل الشاب إلى ذئب.

الرصاصَة الأولى

فتحت البوابة الحديدية بصوت صرير طويل، فانفجر الطابور إلى فوضى.

صرخ الموظف الأجنبي الأشقر: "واحد واحد! بهدووء!"

لكن الجوع لا يعرف الترتيب.

اندفع الحشد دفعة واحدة.

ثم دوى صوت الرصاصَة.

سقط شاب عشريني، لم يصرخ، فقط اتسعت عيناه على السماء كأنه يلومها.

صرخت امرأة: "وقع! وقع!"

تراجع البعض، لكن اللصوص لم يتراجعوا، بل اندفعوا أكثر.

صرخ أحدهم وهو يسحب كيس طحين: "اتركوه! ميت خلّص! الطحين أولى!"

رفعت أم رامي يدها إلى السماء: "يا رب... منشان ولادي... بس كيس طحين".

لعبة الحظ

دخل اللصوص أولاً.

فتحوا الكراتين بسرعة: "سكر! هذا إلنا!"

"-طحينية... جيبها بسرعة!"

"-ارمي معلبات الفاصولياء والبازيلاء! خليهم ياخذوها!"

كانوا يعرفون ما هو غالي وما هو رخيص.

أما الموظف الأجنبي فقد وقف مذهولاً يصرخ:

"-Stop! Please stop! One by one!"

لكنه بدا مثل دمية وسط قطيع جائع.

الفئات للفقراء

وقفت النساء على الأطراف، عاجزات عن الاقتراب.

جمعت أم رامي علب فاصوليا وأكياس عدس صغيرة.

قالت بجانبها عجوز منحنية: "صرنا نعيش على اللي بتركوهم

للصوص... حتى الفئات صرنا نترجاه".

وفي زاوية الساحة، جلس طفل صغير يبكي بجانب جثة أخيه، يحدّق في

المارة دون أن يفهم لماذا توقف العالم فجأة عن الرحمة.

حوار مع جندي

على البرج المقابل، وقف جندي إسرائيلي يدخن سيجارة وهو يراقب

المشهد.

قال لزميله ببرود: "شوفهم... مثل القطيع، يتقاتلون على كيس طحين".
رد الآخر بابتسامة ساخرة: "هذول؟ ما بيستاهلوا غير هيك... خليفهم
يقتلوا بعض بدل ما نتعب إحنا".
ضحك الاثنان، ثم أعاد الأول تصويب نظاره نحو الحشد: "إذا شفت
واحد منهم حامل سلاح... رصاصة بين عيونه".

اعتراف لص

في ركن مظلم، جلس سائد يستريح بعد أن خبأ كيس سكر تحت معطفه.
اقتربت منه أم رامي وقالت بجرأة: "يا ابني... أعطيني شوي لأولادي...
راح نموت عشان لقمة".
نظر إليها بعيون حمراء: "بتعرفي شو؟ أمي صارلها يومين بلا خبز...
إخواني ييموتوا من الجوع... إذا أعطيتك، مين بيعطيهم؟"
ثم أردف بصوت مخنوق: "إحنا يا خالة صرنا حرامية غصب... مش
بإيدنا".

الطريق إلى البيت

حملت أم رامي كيس العدس الصغير كأنه كنز، ومشت في الطريق
الموحل.
كان الليل يقترب، ووراءها خطوات سريعة.
التفتت فرأت شاباً يحمل سكيناً.
شدّت على الكيس أكثر وسارت أسرع.
لكن الشاب تجاوزها... لم يكن يريد العدس.

كان يبحث عن السكر.

المخيم يتكلم

في المخيم، اجتمع الجيران حول نار صغيرة.
قال أحدهم: "اليوم قتلوا عشرة قدام المركز... واللصوص أخذوا كل شي".

رد آخر: "والله يا أخي... ما ضل كرامة ولا أمان".
جلست أم رامي صامتة، تحضن كيس العدس، بينما رامي ابنها ينظر إليها بعيون تأثّة: "ماما... جيت خبز؟"
سكتت... كيف تخبره أن الخبز صار للذئاب فقط؟

جولة جديدة

وصل الخبر سريعاً: "غداً شاحنة زيت وسكر كبيرة!"
اشتعل الحماس في المخيم.
قال أحد الرجال: "لازم نروح بكّير... قبل ما يوصلوا الحرامية".
لكن امرأة عجوز علّقت: "الحظ هناك... يا بتطلع عايش ومعك شي، يا بيرجعوا شاييليك على حمالة".

المجزرة

كان اليوم التالي أعنف من أي يوم مضى.
مع فتح البوابة، تدافعت الأجساد، صرخات وشتائم، ثم انفجار من الرصاص. سقط العشرات.

رأت أم رامي سائداً مضرجاً بدمه، كيس السكر ما زال بين يديه.
ركض شاب محاولاً إسعافه، لكن الجنود أطلقوا رصاصة أخرى جعلته
يتراجع.

الدم امتزج بالطين.
تحولت ساحة المساعدات إلى مجزرة مفتوحة.

عادت أم رامي إلى خيمتها خالية اليدين. جلس رامي قريبا وقال:
"ماما... اليوم في عشاء؟"

لم تجبه. كانت عيناها معلقتين على كيس العدس الفارغ.
في مراكز الموت، إما أن تموت برصاصة... أو تعود بحفنة عدس، تنتظر
بها موتاً آخر أبطأ.

تمت.

العرش الأبيض

في ظهيرة رمادية، كان الهواء مشبعًا بغيار النزوح الأخير. على أطراف المخيم الجديد، حيث الخيام ما زالت تُنصب بقلق، ظهرت سيارة بيك أب مهترئة، وقد رُبط في مؤخرة صندوقها... كرسي تواليت أفرنجي. ضحك بعض الأطفال وهم يشيرون إليه: "شوفوا! التواليت وصل قبل الخيمة!"

لكن "أبو نائل" لم يبتسم. نزل عن السيارة بحذر، وراح يفك الحبال الملفوفة حول الكرسي كأنه يحزر كنزًا ثمينًا. اقترب منه "أبو ناصر"، رجل ستيّني بوجه مغبر وصوت مخنوق من التعب: "والله ما في أهم منه بهالأيام... لحق حالك قبل ما تصير تدور مثلنا".

هز أبو نائل رأسه، وهو يحمل الكرسي بين يديه كمن يحمل مسؤولية تاريخية: "وصّاني صاحبي اللي نزح قبلي... أول شي تشيله معك: الكرسي الإفرنجي. لا تضيع وقتك بفراش أو طنجرة... الكرسي أولًا".

وقف الرجال يشاهدونه وهو يضع الكرسي في زاوية ظل حدّدها بعناية قرب خيمته، ثم جلس على حجر وأشعل سيجارة. " -بتعرف، أول مرة نزحنا قبل سنتين... نسيت آخذ الكرسي. تندمت، حفرة وغطا، وصراع كل يوم. بعدين لما اشتريته، حسّيت عندي عرش، مش بس مرحاض".

ضحك أبو ناصر: "ما حدا بيعس بقيمته إلا لما يعيش بجحيم النزوح. بتعرف؟ الكرسي صار يتنقل معي أكثر من مرتي! كل مخيم بروحله، بفكه وبركبه. صار عنده خبرة أكثر مني بمواقع الحفر والتمديد".

اقترب شاب نحيل، يحمل أنبوب بلاستيكي: "مين عنده وصلة طويلة؟ جبت برميل، بس ناقصني مترين توصيلة".
رفع أبو نائل يده: "تعال، عندي كلشي جاهز... خزان، خرطوم، حتى فتحة تهوية!"

نظر إليه الشاب بانبهار: "الله يرزقك! عامل مشروع صرف صحي ولا خيمة؟"

ابتسم أبو نائل بمرارة: الكرسي، مشروع حياة".
وبينما الشمس تميل نحو الغروب، بدأت أصوات الحفر والطرق تتصاعد في أنحاء المخيم، بقي الكرسي الأبيض هناك، صامداً، نظيفاً، ومرفوعاً كراية.

كان شاهداً على أزمنة التشرّد، على التحول من بيوت إسمنتية إلى أقمشة مهترئة. لم يكن مجرد مقعد لقضاء الحاجة، بل رمزٌ للبقاء... للكرامة... ولأنسنة الاضطرار.

تمت.

هل وصل الماء؟

في صباحٍ رماديٍّ بعد أشهرٍ من الدمار، تعالى في الأفق صوت غير مألوف... ليس انفجاراً هذه المرة، بل هدير شاحنةٍ تقلّ أناساً بوجوه أنهكتها المنافي، محمّلة ببطانيات، خيام، ذكريات مشوشة، وشيء من الأمل الذي لا يزال يتشبّث بخرق الحرب.

توقفت الشاحنة على أطراف المدينة المسجّاة بالركام، نزل منها "أبو ربيع" بخطوات مترددة، وخلفه زوجته "أم ربيع"، تمسك بيد حفيدها، الذي لم يعرف من "البيت" سوى صورة باهتة وُضعت تحت وسادته في المخيم.

أشار أبو ربيع نحو بقعة خالية قال إنها كانت البيت.

"- هنا كنا نزرع الفلّ... وهناك كانت غرفة البنات".

ردّت أم ربيع بصوتٍ مخنوق: "راحت البيوت، بس... نخط خيمة ونسكن. المهم نرجع".

لكن صوتاً آخر قاطعها من الخلف، كان صوت "أبو حمزة"، جارهم القديم وقد سبقهم في العودة بأيام: "اه.. بس بتعرفوا تسألوا؟" استدار الجميع إليه.

"- قبل ما تفكر تفرد خيمتك، اسأل... في مي؟"

سكت الجميع.

أكمل أبو حمزة، وهو يرفع غالوناً فارغاً: "كلشي ممكن تعوّضه... الحيطان، السقف، الشباك... حتى الكهرباء. بس المي؟ إذا ما في مي، لا بيت بينبني، ولا خيمة بتنحط. كل يوم من ساعة ما رجعت، وأنا بأمشي ٣ كيلومتر لأعبي غالون واحد".

قال أبو ربيع، وهو ينظر نحو الحي المحطم: "قالوا خلصت الحرب... بس ما حدا قال إذا رجعت المي".

ردّ أبو حمزة، وهو ينظر في الأفق: "الحرب خلصت على الورق... بس تحت الركام، لسه في أسئلة ما جاوبت عليها الحكومات ولا الناس: هل المي بتوصل؟ هل في حياة؟"

اقترب شاب عشريني، يبدو أنه متطوع من فريق تقييم الأضرار، يحمل دفترًا صغيراً، وسأل: "حضرتك راجع تسكن؟"

أجابه أبو ربيع بتهيدة: "راجع أشوف إذا فيني أسكن. بس جاوبني انت أول، المي واصله؟"

قلب الشاب في أوراقه، ثم قال: "الخط الرئيسي مكسور، قاعدين يشتغلوا عليه. بس حالياً، ما في".

ساد الصمت.

نظرت أم ربيع لزوجها، ثم قالت بحزم: "ما بترك الأرض. بنحط الخيمة، بنستنى المي. ولما ترجع المي؟ بترجع الحياة".

أبو ربيع نظر لطفله، ثم إلى البقعة التي كانت منزله: "حتى لو ما في مي... رح نبقى نحضر بإيدينا لنرجعها".

وهكذا، فُردت الخيمة الأولى في الحي الميت... كأنها نبض قلب في صدر توقف، عاد يخفق رغماً عن الموت.

كانت العودة قد بدأت، لا بسقف فوق الرأس، بل بسؤال واحد: هل وصلت المي؟

وكانت الإجابة، يوماً ما، ستأتي... قطرة فقطرة.

تمت.

لا باب لي

في المخيم رقم 14، حيث لا شيء يملك اسماً سوى الخيام المرقعة، كانت الرياح تمرّ بحرية كما لو أنها صاحبة المكان. جلست "أم وسيم" أمام خيمتها، تُعيد تثبيت قطعة القماش المتدلية كأنها باب. شدت الحبل بيديها النحيلتين وقالت لنفسها: "لو كان للريح باب، لما دخلت علينا بهذا الشكل الفج".

جاءت جارتها "أم ليث"، تحمل زجاجة ماء وكيس خبز، وقالت وهي تشير إلى القماش: "صار له أسبوع بيطير مع أول نسمة... بدك خياط يخطلك الباب، أو بتركبي سحاب؟" ضحكت أم وسيم بمرارة: "باب؟ من زمان ما شفت شي اسمه باب... من يوم ما طار باب البيت مع أول قذيفة". قالت أم ليث: "مشكلتي مش مع باب الخيمة... مشكلتي مع باب التواليت. امبارح كنت جوا، وراح الغطا مع الهوا! والله حسّيت حالي بمسرحية".

ضحكتا معاً، ضحكة تحمل شيئاً من السخرية وشيئاً من البكاء المكبوت. اقترب "وسيم"، ابن أم وسيم، بعينين طفوليتين تلمعان بالحدَر: "يمّا، في رجال غرب عالباب... أقصد... عالقماش!"

قامت أم وسيم بسرعة وسحبت القماش لتغطي الفتحة، كأنها تغلق قلعة: "لو فيه باب مثل الناس، ما كان ولد عمره 8 سنين صار يخاف على عرضه".

دخل الرجل الغريب، كان موظفًا في إحدى المنظمات، يحمل ورقة وقلماً: "مساء الخير، إحنا عم نعمل مسح للخيام... شو أبرز الاحتياجات عندكم؟"

نظرت إليه أم وسيم مباشرة، وقالت بحزم: "باب".

تفاجأ الرجل: "باب؟ قصدك... خزانة؟ ولا غرفة؟"

أجابت: "باب وبس. ما بدي خزانة، ولا غرفة، ولا حتى سرير. بس باب... أسكره وارتاح. باب للخيمة... باب للمرحاض... باب للغرفة المصنوعة من قماش، بس لما ينغلق، أحس إني إنسانة، مش طيف".

سكت الرجل، ثم كتب شيئاً على ورقته، بصمت يشبه الخجل.

قالت أم ليث: "نحن صرنا ناس بلا أبواب... وبلا جدران... وبلا أسرار.

صرنا نعيش مكشوفين مثل وجوه الحزن، ما فينا شي يُغلق".

أضاف وسيم بصوته الطفولي: "بس لو صار عنا باب... بخبي ورا الباب لعبتي الجديدة".

التفت الجميع إليه.

ربّت أمه على رأسه وقالت: "بتعرف يا وسيم؟ الباب مش بس بيسكر...

الباب أمان. واللي ما عنده باب... ما عنده ظهر".

وفي المساء، حين لَفَّ البرد الخيمة، وعادت الرياح تعبث بالقماش الذي يسمونه "باباً"، جلست أم وسيم تكتب على قطعة كرتون صغيرة، وعلّقتها على الخيمة: "بيتنا ما فيه باب... بس فيه ناس بتستحق تحيا بكرامة".

تمت

حكاية نعل

في مدينة تنام على رماد القصف وتصحو على صوت المولدات، تصبح الأشياء الصغيرة معارك كبيرة... حتى لو كانت "ششب".
في قلب غرة المحاصرة، عاش "أبو سليم" - رجل خمسيني يملك قلباً واسعاً كالبحر، وصبراً من فولاذ. كان يمشي يومياً في السوق القديم، ينتعل "ششب الخليلي" ذو الجلد الأصلي، الذي اشتراه ذات يوم بخمسين شيكلاً، وكان يفخر به كمن يملك كنزاً.

كان رفيق خطاه الطويلة في الأزقة، في طوابير الغاز، في المساجد، وفي مشاوير الحياة اليومية التي تتكرر كأدعية الصبر.

مرّت عليه الأيام، وتآكل النعل من كثرة المشي، فقد حمله الششب على الأرصفة الحارة، وفي الزحام، وأثناء النزوح، وفي رمال المواصي وتحت القصف، وفي صفوف الخبز، وتحت شمس الانتظار الطويل. لكن الششب بقي متيناً، جميلاً، يشهد على سنوات من التعب والصبر.

في صباح مشمس كاذب، انكسر نعل الشبشب، تشقق، صار يؤله أكثر مما يريجه. نظر إليه طويلاً كأنما يودّعه، ثم قال: "أنتَ ما قصّرت... بس خلص، إجى وقتك".

"-خلص، الشبشب استنزف... لازم أشتري غيره".

أمسك الشبشب كما يُمْسك بذكري، وخرج يبحث عن بديل.

في السوق، تحوّل أبو سليم إلى صيّاد يطارد شبشبه المفقود .

لكن الصدمة كانت بانتظاره.

سأل البائع: "بكم الشبشب الخليلي؟"

ردّ البائع، وهو يقلبه بيده كأنه قطعة ذهب: بـ "550 شيكل، بس لأنه

أصلي... من النوع اللي ما بيموت".

كاد قلبه يسقط .. شهق أبو سليم: والال بـ "550؟! يا زلة أنا اشتريته

بخمسين!"

"-الدنيا حرب يا حاج... كل إشي نار، الشبشب صار مثل الذهب".

عاد إلى بيته غاضباً، فتح "الجزّامة"، ونظر إلى أحذيته القديمة، فوقع

بصره على "جزمة" سوداء متروكة منذ سنوات. شهدت زمناً آخر، شتاءً

منسياً. نادى على ابنه: "خذ هاي الجزمة، وهذا الشبشب، وروح عند أبو

رياض (خياط الأحذية)، قله يفك نعل الجزمة ويركبه على الشبشب".

ذهب الولد، لكنه عاد بعد نصف ساعة ومعه رسالة: "بقولك المقاسات ما

بتزبط، النعل صغير. والשבشب عريض".

أبو سليم لم يحتمل الخذلان الثاني. ارتدى دشاشته، حمل الحذاءين، وتوجه بنفسه إلى "أبو رياض"، السكافي، الوحيد في المنطقة.

دخل دكان أبو رياض وقال بصوت مرتفع: "اسمعني يا أبو رياض، أنا بدي الشبشب يعيش كمان عمر... فك نعل الجزمة وركبه، وأنا بتحمل النتيجة، أنا مسؤول، حتى لو ما زبط".
هزّ أبو رياض رأسه بعد أن تأمله قليلاً، ثم قال بابتسامة خفيفة: "ماشي... على بركة الله، بس أنت عنيد".

جلس الرجلان يعملان بصمت، صوت المطرقة، ورائحة الجلد، وأبو سليم يراقب شبشبه يعود للحياة.
كمن ينتظر لعملية زرع قلب جديد
وحين انتهى العمل، رفع أبو رياض الشبشب أمامه، وقال: "ها هو... نعل جديد، حياة جديدة".

فرح أبو سليم ونظر إلى الشبشب كمن رأى معجزة، وسأل: "قديش الحساب؟"
رد أبو رياض: "خمسين شيكل".
أبو سليم اتكهرب: "يا راجل! انا اشتريت كل الشبشب بخمسين شيكل؟"
ضحك أبو رياض بمرارة: "اليوم الشبشب بـ 550، اعتبر حالك كسبان".
لكن أبو سليم ما سكت، وبدأت الملابس. احتدّ النقاش، ارتفعت الأصوات، تجمع الناس، وكل واحد صار يحكم.

"- يا جماعة، الشبشب مستعمل، والنعل مستعمل، والشغل بسيط".

"-بس الشطارة مش بس بالخياطة، الشطارة في الإبداع!"

-الفكرة فكرتي ، و"لازم نحكم بالعدل".

وبعد أخذ ورد، حكم الناس: "٢٥ شيكل، حق شغل الإيد".

ضحك أبو سليم، دفع المبلغ، ومسك الشبشب كأنه ولد عاد من الموت.
وفي طريقه إلى البيت، قال لابنه: "شايف؟ ما بنرمي الأصل... بس بنغير
النعل".

وفي المساء، جلس أبو سليم على عتبة البيت، يلمع الشبشب كما يلمع سيفاً
قديمًا، وقال: "في هالبلد... بنموت ألف مرة، بس ما بنستسلم .
-كل شيء ممكن نصلّحه... إلا الناس اللي نعلهم ما بيثبت على شبشب
الأصل".

تمت.

ماءٌ على صفيح الانتظار

الهدوء الذي يسبق العطش

كان الصباح في المخيم رمادياً، كما هو دائماً. الشمس بالكاد تتسلل من بين الغيوم وكأنها تخجل من النظر إلى هذا المكان. خيام متراسة كأوراق صفراء متيبسة في فصل خريف لا ينتهي. الهواء مشبع برائحة الغبار والرطوبة والانتظار.

وقف "فادي" أمام الخيمة، يرمق الطريق بعينين جافتين، ليس من التعب فقط، بل من قلة الماء أيضاً.

قالت أمه وهي تملأ إبريق الشاي من نصف قنينة بلاستيكية: "ألا ترى؟ وجهك صار مثل الرمل... متى تأتي السيارة؟"

رد بمرارة: "تأتي حين تمتلئ خزاناتها بحصتنا من الصبر... وليس بالماء".

ضحكت الصغيرة "جنى" بخفة: "يعني اليوم؟"

لم يجب. نظر بعيداً حيث الطريق المكسور، مترقّباً ذلك الوحش الحديدي الأبيض الذي يحمل براميل الحياة فوق ظهره.

صوت العجلات... صوت النجاة

مع اقتراب الظهيرة، دوى صوت محرك الشاحنة الكبيرة. سمع الجميع أول صدى لها كما لو كان طبلأً في معركة. خفق قلب فادي بسرعة، وهبت أمه من داخل الخيمة كأنما ناداها صوت المنقذ.

ركض الأطفال، تبعهم الكبار، رجال ونساء، يحملون الجالونات البلاستيكية، الدلاء، الزجاجات، وأحياناً حتى أكياس الماء التي تستخدم في غسيل الكلى.

وقف السائق على ظهر الشاحنة، ممسكاً بالخرطوم، بينما وقف رجلان على جانبيه يناديان: "كل عائلة 40 لتراً فقط! لا أحد يتجاوز، الكل سيأخذ!"

همس فادي لأمه وهو يحمل الجالون: "دورنا بعد ثلاث، إن شاء الله نلحق".

لكن من اللحظة التي بدأ فيها الضخ، بدأ أيضاً الضجيج. صراخ هنا، دفع هناك، امرأة تسقط، ورجل يصرخ: "أنا قبلك! لا تكذب، رأيتك تندس!" شخص آخر يهتف: "يا ناس، كلنا نازحين! خافوا الله، الكل عطشان!"

شرارة في برميل الجوع

ثم انفجرت الشرارة.

رجل من الصف الخلفي قفز للأمام، جذب الخرطوم بعنف، فصرخ السائق: "ارجع! مش دورك!"

لكن الرجل لم يسمع، فقد كان يحمل على كتفه عطش أطفاله. دفعه شاب آخر، تصاعدت الأصوات، واندفع فادي ليسحب أمه جانباً قبل أن تصيبهما موجة التدافع.

صرخت جنى من بعيد: "ماماااا!"

تدحرج جالون فادي على الأرض، انسكب جزء من مائه، شعر أن قلبه
ينكسر معه.

صرخت امرأة باكية: "ليش بتتقاتلوا؟! نحنا كلنا نازحين! نحنا واحد!
وهمنا واحد"

فجأة، عمّ الصمت.
حتى السائق أنزل الخرطوم، وقال بتعب: "ما رح أكمل التوزيع بهيك
وضع. اترتبوا أو بروح".
ساد الوجود. كانت لحظة وعي نادرة. كأنما تذكر الجميع أنهم ليسوا
أعداء، بل ضحايا العطش نفسه.

من بئر القلب
اقترب رجل مسنّ، ضعيف النظر، لكن صوته كان واثقاً: "يا أولادي، الماء
بيكفي لو تنظمنّا. أنا عطشان متلكم... بس كرامتنا أهم من قطرة مي
بتنسكب على الأرض بالعراك".
هزّ الجميع رؤوسهم.
اصطفوا من جديد، هذه المرة في هدوء. كانت أصوات أنفاسهم تسمع
أكثر من أي شيء.

وصل دور فادي، ملأ الجالون بصمت، وناول أمه الدلو، ثم التفت إلى
السائق: "شكراً إنك صبرت علينا".
ابتسم السائق بتعب وقال: "الله يصبرنا جميعاً".

عندما عاد فادي إلى خيمته، وضعت جنى يدها الصغيرة في يده وسألته:
"هل سنتقاتل بكرة كمان مرة؟"
نظر إلى السماء الرمادية، ثم إلى عينيها اللامعتين، وقال: "إذا تذكّرنا
إنو نحنا إخوة... ما رح نتخانق.

تمت.

فلافل على التطبيق البنكي

في قلب الحارة، حيث تصطف البسطات القديمة كصفوف جنود صامدين أمام الزمن، كانت الحرب قد غيرت حياة الناس أكثر من أي قرار حكومي. السيولة النقدية اختفت، والفكة كانت أغرب من الكائنات الفضائية، وكل عملية شراء صارت مغامرة يومية.

داخل مطبخ ضيق، كانت أم سامي تقلب القدر الفارغ على موقد النار.. تقول بصوت متعب لكن ممتلئ بالشغف: والله يا أبو سامي، نفسي آكل فلافل! ريحتها طالعة من آخر الشارع، وقلبي مش قادر عليها.

رفع أبو سامي حاجبيه، وعيناه تتلألآن بخفة رغم الشح الذي يحيط بهم: فلافل؟ يا ستي، لازم فكة، والفكة اليوم مفقودة مثل المطر في الصيف. لكن الجوع، كما يعرف الجميع، لا يرحم الأعذار. ارتدى سترته المهترئة، وخرج كمن يذهب في مهمة استكشافية، يجرّ وراءه قدراً من الأمل أكثر من ماله الفعلي.

وصل إلى البسطة، حيث كان أبو العبد يقف بين رائحة الزيت المغلي وصوت نار الحطب، عيونه تراقب كل ورقة نقدية كأنها كنز ثمين.

قال أبو سامي وهو يلوّح بورقة نقدية كبيرة: لو سمحت ب8 شواكل فلافل ع السريع، العيلة جوعانة.

ابتسم أبو العبد، ومسح يديه بمنديل أصفر، وقال: ما معك فكة يا زلة؟ مدّ أبو سامي الورقة أمام وجهه دون تردد، وكأنها سلاح قديم.

-والله، هادي آخر ورقة عندي... لو قصّيتها بالنص، هل تقبلها؟

ضحك أبو العبد من قلبه، وصوت ضحكته امتزج بصوت النار: لا تقصها، ولا تتعب حالك... حوّلني عالتطبيق البنكي، أحسنك!
تردد أبو سامي، ثم أخرج هاتفه من جيبه كمن يخرج مخطوطة أثرية، وقال وهو يحاول تذكر كلمة السر: لحظة... الرقم؟ الرقم؟ يمكن رقم حماتي؟

ضحك أبو العبد حتى دمعت عيناه، وقال: بسرعة يا زلة، قبل ما تبرد الفلافل!

مرت دقائق، مرت كأنها ساعات، وكل خطوة في التطبيق كانت مغامرة: ضغط هنا، مرر هناك، تأكد من الرصيد، اكتب رمز التحقق... وأخيراً، وصلت الرسالة: "تم التحويل بنجاح."

ابتسم أبو العبد وقال: ألف مبروك! أول فلافل رقمية بتاريخ الحارة!
عاد أبو سامي إلى البيت، يحمل كيس الفلافل ساخناً، وكأنه يحمل قطعة من الحياة نفسها. دخل، ورائحة الفلافل الغنية بالبقدونس والجرادة والكزبرة والثوم انتشرت في كل زاوية، فابتسمت أم سامي وقالت مازحة: يعني بكرة حشش تري الغاز والماء بنفس الطريقة؟
رد أبو سامي وهو يقطعّ الفلافل: ليش لا؟ يمكن بكرة نششري حياة جديدة على القسط الإلكتروني!

ضحك الاثنان معاً، وسط صوت الحرب البعيد ورائحة الفلافل القريبة، وشعرا، رغم كل شيء، أن العالم لا يزال قادراً على الابتسامة... حتى لو كانت الابتسامة رقمية.

تمت

قبل أن ينخفض الدخان

لم تكن هناك صافرات إنذار. فقط دخان كثيف، وسقف ينهار على صراخ طفل يبحث عن والده بين الركाम. في حيّ الشجاعية، تحديدًا عند تقاطع شارع النزاز مع شارع بغداد، كانت أم رامي تضع الماء على النار لتغلي قليلاً من العدس، حين اهتزت الأرض تحت قدميها، وطار باب المطبخ كجناح غراب مفجوع.

ركضت بخفة لم تعهدها في جسدها الذي هدّه التعب، صاحت: "رامي؟ وينك يمّه؟"، لم يجبه أحد، فقط جلبة الناس في الشارع وصوت أزيز فوق رؤوسهم. عرفت أن الطائرات عادت، رغم أن الإذاعة كانت تبث بياناً عن اقتراب اتفاق وقف إطلاق النار.

مرّت دقائق طويلة كأنها دهر، قبل أن تخرج أم رامي إلى الشارع حافية، تحمل في يدها كفّ حذاء قديم وتضع على رأسها غطاء الطنجرة. كانت البيوت المجاورة قد تهاوت. والغبار جعل الهواء رمالاً. صرخت باسم ابنها مجدداً، وبينما هي تقترب من كومة أحجار كانت قبل دقائق منزل عائلة أبو راشد، سمعت أنيئاً. حفرت بيديها حتى وجدت رامي، حيّاً، لكن الدم يسيل من جانب وجهه.

احتضنته وبدأت تبكي، لم تعلم أنه فقد إحدى قدميه. لم تكن قد رأت الجرح، ولم تشأ أن تصدّق الإحساس الثقيل الذي انتابها حين لم يتحرك ابنها إلا بذراع واحدة وساق واحدة.

مرّ شاب يرتدي معطف إسعاف ممزق وقال لها بصوت مقهور: "في خيمة طبية قرب الجامع، إذا بتقدري توصليه هناك."

لم يكن هناك حمالة ولا وسيلة. وضعت رامي على غطاء الطنجرة، وبدأت تسحبه على الأسفلت، وسط نظرات واجمة من أناس فقدوا قدرتهم على المساعدة. كانت تقول له: "شُدّ حيلك، يمّه، الحرب قربت تخلص، راح تصير تلعب كرة من جديد."

لكنه لم يجب، فقط أغمض عينيه، والدم كان يرسم طريقاً خلفه.

تمت

صفقة تحت النار

"بدهم يوقفوا إطلاق النار؟" قالها أبو أنور ساخراً، وهو يدقّ المسمار في تابوت خشبي على عجل، بينما الغبار يملأ المكان والهواء ثقيل بالدخان. كان يعمل متطوعاً في مقبرة بيت لاهيا، حيث بات الدفن لا يحتاج أكثر من عشر دقائق: حفرة سريعة، دعاء مختصر، ثم عودة مسرعة قبل أن تحوم طائرة. لم تعد للوداع طقوس، صاروا يقيسون الوقت بالبقاء على قيد الحياة.

أكمل أبو أنور وهو يجفف عرقه بكمّ قميصه: "الهدنة يعني يفرغونا من جوه، مش يوقفوا القتل. بالعكس، في آخر لحظة بيقتلوا أكثر حتى يحكوا إنهم ضغطوا عشان الصفقة."

مرّ شاب يحمل كيساً أسود فيه جثمان أخيه. لم يملكوا سوى كيس طحين لفه حوله، وقال لمن سألته: "كان بيحلم يطلع يدرس طب، بس شكله راح يتخرّج في المقبرة قبل الجامعة". ركب العربّة من دون أن ينظر خلفه. في الخلفية، كانت موجات الراديو تبث خبراً بصوت هادئ: "الوسيط القطري يصل اليوم لمتابعة بنود الاتفاق، وهناك تقدم ملحوظ في ملف تبادل الأسرى."

لكن صوت الانفجار التالي كان أوضح. أوضح من كل بيانات العالم. أم خالد وقفت على باب المقبرة، تسأل: "في مكان فاضي؟ جبت ابني، بس لازم أرجع بسرعة قبل ما يقصفونا احنا كمان."

تمت

بيضة بثلاثين شيكل

في سوق النصيرات، لم تكن الروائح فقط ما يدفع الناس للتقيؤ، بل الأسعار. لا يوجد قانون، لا رقابة، فقط فوضى مغطاة بغبار الحرب وحرقة الجوع.

"بيضة؟ بثلاثين شيكل؟! " صرخ الرجل العجوز، فهزّ الشاب كتفيه وقال: "هاتها من إسرائيل إذا أرخص، أو كل هوا وامش."

كانت الحرب قد أغلقت الطرقات، وأوقف الاحتلال شاحنات الإغاثة، بحجة أن المفاوضات متوترة. الجميع ينتظر الهدنة، لكنها لا تأتي، والناس تتضور جوعاً وتبيع ما تملك من أجل فتات.

امرأة تبتاع نصف كيس رز مقابل خاتم زواجها .

شاب يعرض زجاجة زيت مقابل بطانية تقيه برد الليل.

شيخ يجلس على الرصيف يضع أمامه بضع تمرات ويكتب على كرتونة: "صدقة لأجل دواء حفيدي."

"بنتي ما أكلت من يومين"، قالت أم عماد، وهي تحمل طفلها فوق صدرها، نحيلاً كعود يابس، ينظر بعينين نصف مغمضتين وكأن الحياة تخرج منه كل لحظة.

من خلفهم، كان صراخ يمزق السوق: "قصف جديد في دير البلح!". لا أحد يعرف إن كان القصف قريباً أو بعيداً، فكل الأماكن أصبحت قريبة.

هربوا، لكن البيض ظل في مكانه، وحده، كرمز ساخر لغلاء الحياة وسط الموت.

تمت

المنطقة الإنسانية

قالوا لهم: "اذهبوا إلى مدرسة البراق، إنها منطقة إنسانية." جمعت أم ناصر أبناءها الثلاثة، ولفت بطانية فوقهم، ومشت خمس ساعات على الأقدام، تغوص أقدامهم أحياناً في الوحل، وأحياناً في بقايا بشر. وصلت إلى المدرسة وهي تلهث، فتحوا لها الباب، قالوا: "في غرفة فاضية فوق، بس ما في فراش."

في الليل، حين هدأ القصف للحظات، حاولت إقناع ابنها أن ينام. قالت له: "بكرة بنرجع عالدار." لكنه سألها: "يعني دارنا رجعت انبنت من جديد؟" لم تعرف كيف ترد، فقد كانت الدار تحت الأرض.

وفي منتصف الليل، دخلت عليهم قذيفة من نافذة الحمام، انفجرت وسط الغرفة، ومات ابنها الصغير على الفور. أما هي، فبقيت حية، تحت الجدار، تستمع لصوت صراخ الناس وهم يخرجون جثثاً من الفصول الدراسية.

وفي صباح اليوم التالي، قالت الإذاعة: "تم استهداف موقع للمقاومة
كان يستخدم المدارس كدروع بشرية."

لكنهم لم يجدوا في الغرفة إلا حقيبة أطفال فيها دفتر رسم وقلم مكسور.

تمت

تحت علم أبيض

كانت تحمله كمن يرفع قلبه على عصا. قطعة قماش أبيض مربوطة بعصا
مكنسة مكسورة، تلوّح بها أم وسيم في الهواء أمام عربة خشبية يجرها
حمار نصف ميت. في العربة: ولدها الجريح، وجارتها العجوز، وطفل
لقيط لا تعرف اسمه، لكن صوته يئن من أسفل البطانية.

"ماشيين للمنطقة الآمنة يا خالة؟" سألها شاب هارب من المخيم. أجابت
وهي تشدُّ الوشاح فوق رأسها: "ما ضلّ عنا محل.. حتى الخوف صار
يهرب منا".

وصلوا إلى مفترق الطرق قرب برج الباشا المهدم. علقوا. أمامهم دبابّة
تقف بلا حركة، وخلفهم طائرة بدون طيار تُحوم. ترددت. ثم صاحت:
"احملوا العلم الأبيض وارفعوه فوق.. خلونا نعي!"

لكن الرصاص لم يتردد مثلها. انفجرت رصاصة في رأس الحمار، وسقط
العلم الأبيض في الدم.
تدافع الناس للهرب، وتركت أم وسيم العربية تصرخ: "كان حامل العلم..
مش سلاح!"

تمت

الشهيد الذي عاد

أعلنوا استشهاده في الليلة التي قُصف فيها منزله، ودفنوه دون جثمان.
قالوا: "انصهر تحت الركام، ما ظل منه شيء".
لكن بعد ستة أيام، دخل المشفى الميداني شاب محترق الوجه، فاقداً
للاذكرة. لم يعرف أحد من هو، حتى رآه أخوه صدفة وقال: "هذا سامر!
والله سامر!"

أخذوه لأمه، فتملمسته بيدين مرتعشتين وهمست: "كنت بدعيلك بأخر كل
صلاة.. بس ما كنت مصدقة إنك راح ترجع".

لكن سامر لم يتذكر أحداً. جلس في الزاوية يراقب السقف، وقال بعد
ساعتين: "ليش ما بدأت الهدنة قبل ما يموتوا كلهم؟"
صمت الجميع. حتى الحزن شعر بالعار.

تمت

رسالة لم تصل

كتبها بالرصاص، لا بالحبر. أخذ غلاف رصاصة فارغة، وثبت فيها ورقة صغيرة كتب فيها: "نحن أحياء.. تحت الركاب.. ثلاثة.. ماء انتهى. أرسلوا أحداً".

وضعها في جيب شقيقه الصغير، ثم أرسله يزحف تحت الأنقاض نحو الضوء. وصل الطفل إلى الشارع، لكن دبابه كانت هناك. خاف أن يقترب، فجلس على الرصيف ينتظر. بعد نصف ساعة، جاءت طائرة، قصفت المكان كله. لم يعثر أحد على الطفل. ولم تصل الرسالة.

تمت

تسعة أرغفة وسكين

"كل واحد رغيّف. اللي عاوز يزيد بياكل تراب." هكذا صرخ أبو رعد وهو يوزع الخبز داخل خيمة النزوح. لكن صبحي، المراهق الذي مات أبوه منذ أسبوع، طلب رغيّفًا إضافيًا لأخيه المريض. لم يجبه أبو رعد. فقط نظر له، ثم طعنه بسكين قديمة في كتفه وقال: "الحرب ما فيها عدل، فيها قسوة بس".

صرخت الخيمة. الناس تشاجروا، الدم امتزج بالطحين، والطفل المريض مات تلك الليلة من الجوع، لا من الطعنة.

تمت

راديو فوق الركّام

في عمارة مدمرة في تل الهوى، جلس إيهاب بجوار مذياع صغير يعمل على بطارية .

فوق رأسه: السماء مكشوفة .

تحتة: بقايا غرفة نومه. كان يفتح الراديو ليسمع آخر الأخبار.

"الهدنة على وشك التحقق، والبنود تتقدم".

ضحك. ضحكته كانت مجنونة. قال بصوت عال: "يا راديو يا كذاب، بدك تخليني أصدق؟!"

ثم صرخ بصوت مبجوح: "الهدنة جابتلي الموت، مش الحياة".

بعد دقيقة، سقط صاروخ قرب البناية. اختفى الصوت.

لكن الراديو ظل يعمل.

تمت

حلم مؤجل

في زاوية من زوايا مشفى العودة، جلست مروة، الطبيبة المتدربة، تكتب على ورقة بخط مرتجف: "كان حلمي أفتح عيادة أطفال. اليوم، أنا صرت أدفن الأطفال، مش أعالجهم".

مرت ممرضة وقالت: "في حالة طارئة جاية.. طفل مفصول الأطراف". مسحت مروة دموعها، نهضت، وربطت شعرها، ثم همست: "ما دام في أطفال.. ما بوقف".

لكنها كانت تنزف من الداخل. تلك الليلة، بعد 16 ساعة عمل متواصلة، سقطت مروة في ممر المشفى مغشيًا عليها. كتبوا على جبينها بالدم: "شهيدة الحلم".

تمت



بث حي من الجحيم

كان بيت من هاتفه المحمول، وهو يحتمي بجدار نصفه مدمر ونصفه ينتظر. الصحفي أحمد، لم يعد يرتدي خوذة ولا يحمل بطاقة صحافة، بل قلبه المكشوف وحده كان بطاقة عبوره إلى العدم.

"نحن الآن نغطي ما تبقى من حي الصبرة بعد غارة استهدفت المدرسة التي لجأ إليها الناس بعد تهجيرهم من أبراج تل الهوى..." توقف عن الكلام، وابتلع ريقه. كان خلفه طفل يحمل قطعة كرتون يكتب عليها: "مش طالبين هدنة، بدنا نعيش بس."

صوت طائرة F35 مر فوقهم، فخفض الكاميرا، وسأل زميله: "لو متنا، بتوصل الصورة؟" أجابه: "اللي عاشوا ما وصلوا، بدك اللي يموتوا يوصلوا؟"

تمت

ثلاث ثوانٍ وبيت

قالت الطائرة: "فيه هدف يتحرك". لم يكن الهدف سوى امرأة تحمل كيس خبز وطفلاً نائماً.
في غرفة العمليات العسكرية على بعد مئات الكيلومترات، قال الضابط:
"ثلاث ثواني فقط، ولن يعودوا."
في غزة، انكسر البيت، وتبعثرت الأحلام.
وفي تقرير صحفي لاحق، كُتب: "تم استهداف خلية إرهابية متحركة في منطقة مأهولة بالسكان. يجري التحقق من النتائج."
لكن ما تبقى في المكان كان فقط كيس الخبز، محروق الأطراف، ورأس طفل صغير.

تمت

خدعة الصليب الأحمر

أعلنوا على اللافتات: "الخروج إلى الجنوب عبر قافلة منظمة من الصليب الأحمر". الناس صفّوا أنفسهم بالطواير. رجال ونساء وأطفال يحملون ما تبقى من أشياءهم، وعيونهم تطارد أي وعد بالنجاة. ركبوا الحافلات، وظنوا أنهم في أمان.

لكن الطائرات لم تكن تقرأ الشعار. استُهدفت القافلة قرب مفترق الزهراء. من تبقى من الركاب احترقوا داخل المركبات، ومن نجا، عاد يمشي على قدميه.

وفي بيان مقتضب: "نحقق في ظروف استهداف القافلة، ونتمنى عدم استغلال الحدث سياسيًا."

لكن أم أيهم كانت تحمل حذاء ابنها المحترق، وتركض به كأنها تحاول إدخاله غرفة العمليات.

تمت

درس في الرياضيات

كان المعلم محمود يشرح لتلاميذه في خيمة الدراسة: "إذا كان عدد الأرغفة المتاحة في الخيمة عشرة، وعدد الأشخاص ثلاثين، فكم ربع رغيفاً يحصل عليه كل فرد؟" أجاب تلميذ في الخلف: "ولا إشي يا أستاذ، لأن أبو أنس بياخذ ثلاثة، وهو معاه سكين". ضحك الأولاد، وضحك محمود، ثم صمتوا حين دخلت غارة فجائية أسكتت الدرس.

في اليوم التالي، كتبت إحدى الطالبات على لوح الطين: "درس اليوم: القسمة على القصف لا تُنتج حياة".

تمت

الجثة المتروكة

في ساحة صغيرة خلف مستشفى ميداني، كانت جثة رجل مسنّ ملقاة منذ يومين. لا أحد يملك الوقت ولا القوة لدفنه. قال رجل كان يمرّ: "مش لازم نتركه هيك." ردت امرأة: "دفنّاه الدعاء، والباقي على ربنا".

في اليوم الثالث، حمله طفل صغير، وحده، وسحب الجثة على لوح من الكرتون.

لم يصل إلا إلى أول منعطف، حيث انفجرت قذيفة. واحترق الكرتون. والجثة؟ بقيت، تشهد.

تمت

رجل يحضر بيديه

كانت زوجته وابنته تحت الركाम. لم يكن هناك جرافة. لم يكن هناك أحد.

بدأ يحضر بيديه. ظلت أظافره تنخلع واحدة تلو الأخرى، والدم ينزف، والأنفاس تختلط بالتراب. مرّ رجل وقال له: "ما بيلزمك إسعاف؟"

فأجابه: "أنا الإسعاف، والموت، وكل شي بينهما".
عند الغروب، أخرج يد ابنته. بعد ساعة، أخرج ضفيرتها.
لكنه لم يجد رأسها.

تمت

هدنة على الورق

في فندق فاخر على شاطئ الخليج في دولة قطر، كان الوسطاء يشربون القهوة، ويتناقشون عن عدد الأيام التي ستشملها الهدنة. قال المبعوث: "أربعة أيام كافية؟" قال الآخر: "خمسة أفضل، نُظهر حسن النية".

وفي غزة، كانت أم ثائر تجهّز قبرًا صغيرًا في زقاق مهدم، وتقول لجارتها: "الهدنة اللي بيحكوا عنها، بتبلى بعد ما ندفن كل ولادنا؟"

تمت

البنت والبالون

أعطائها أحد المتطوعين بالونًا أحمر. لم تكن قد رأت شيئًا بهذا اللون منذ بدأت الحرب. حملته، وركضت به بين الخيام. صعد البالون عاليًا، فرفعت رأسها، تلاحقه. في اللحظة نفسها، كانت الطائرة تبحث عن حركة غير مألوفة. سقط الصاروخ، اختفى البالون، والبنت.

تمت

مرايا مشروخة

في أحد مراكز الإيواء، وقف يوسف أمام مرآة مكسورة، يحاول حلق ذقنه بشفرة قديمة.

قال له صديقه: "ليش تعبان؟ شكلنا مش راح نعيش بkra".
أجاب يوسف: "لو متت، بدي أموت وأنا بشبه الإنسان، مش الشبح".
وحين خرج من الخيمة، استهدف المكان.
وجدوه بعد ساعتين، ميتاً، وذقنه حلقة.

تمت

الهاتف المشغول

حاولت أم بشير الاتصال بولدها في رفح. الخط مشغول.
حاولت ثلاث مرات. لا إجابة.
في المرة الرابعة، أجابها رجل لا تعرفه، وقال: "ابنك مات قبل عشر دقائق، بس كان ماسك التلفون.. يمكن كان بدو يحكي معك".
سقط الهاتف من يدها، وجلست على الأرض، وقالت: "كان مشغول.. كان مشغول في".

تمت

السكين والعدسة

كانت تمسك الهاتف المهشم، توثق. كل شيء: الجثث، الركाम، الصراخ، أكياس الدم، وحتى الهواء وهو يئن. اسمها زينب، ناشطة على مواقع التواصل، لكنها اليوم لم تجد شبكة، فوثقت فقط لنفسها. دخل رجل يصرخ: "مين مصور؟ هذا مش وقت صور!" قالت له: "السكين تقتل، والصورة تشهد". وحين حاول أخذ الهاتف، جاءت غارة. سقط الرجل، وبقيت العدسة مفتوحة، تصور الهواء يرتجف.

تمت

شهادة ميلاد

كان يصرخ في وجه الموظف: "اكتب له شهادة ميلاد! بدنا نطلّعه على القافلة". قال الموظف: "ما عندي حبر، ما عندي طابعة، ما عندي برنامج والسجل المدني انقصف". الطفل الرضيع في حضن أبيه، لا يعلم أنه بلا اسم رسمي، بلا جنسية، بلا اعتراف. وفي نفس اليوم، كتب الأب على قماشة مهترئة: "هذا ابني. اسمه نائل. من غزة. مولود في الحرب. لا تنسوه".

ثم لفَّ بها، وهرب إلى الجنوب.

تمت

عبوة الحليب

فتحوها فوجدوا فيها ترابًا. أرسلها أحدهم كمساعدة، لكن المهربين استبدلوا الحليب بطحين فاسد، والطحين بالتراب. صرخت الأم: "كنت أحلم أطعم بنتي، بس الحرب ما بتخلِّي حلم". وماتت الطفلة تلك الليلة. كتبت أمها فوق العبوة: "هذه لم تطعم، بل قتلت".

تمت

شاحن مهترئ

جلس محمد يراقب هاتفه، 2% بطارية. حاول الاتصال بخالته التي نزحت إلى خان يونس. اتصل، لم يُجب أحد. وصلت البطارية إلى 1%. فتح الكاميرا، وبدأ يصور الركاب من حوله . قال: "إذا متّ، هذا آخر اشي بشوفه". ثم أغمض الهاتف، وكتب على الجدار بالفحم: "كانت الكهرباء حلمنا، واليوم صارت لحظة موتنا".

تمت

اسم على الجدار

كانت ليلي تمشي في ممرات المدرسة التي أصبحت ملجأً. توقفت أمام الحائط، وكتبت اسمها.

" -ليش كتبتيه؟" سألها أخوها.

قالت: "عشان لو متت، يعرفوا إني كنت هان".

اليوم التالي، استهدفت المدرسة. ماتت ليلي.

لكن الاسم بقي، يرتجف فوق الجدار المحترق.

تمت

صمت الرجال

جلسوا حول الطاولة، لا يتكلم أحد. الأب يبكي بصمت، والأم تخبز ما بقي من الطحين، والأولاد يراقبون القوط تأكل من سلة القمامة.

قال الصغير: "بابا، بتحكيش ليش؟"

قال الأب: "لأن الحكي ما بيحبيب أكل، وما بيرد اللي راح".

ثم نهض، ومشى باتجاه الباب. لم يعد تلك الليلة.

تمت

رحلة تحت النار

تحركت العائلة من غزة إلى رفح على الأقدام. تسع ساعات، بلا ماء، بلا ظل. كانت الطائرات تراقب من السماء.
قال الجد: "سنواصل السير، بس مش خايفين. نعرف هالطريق، بس المرة هاي مش إلنا، للموت".
في منتصف الطريق، سقط الصغير، تعبًا. الأم احتضنته.
وصلوا، ناقصين واحد.

تمت

الرسالة الأخيرة

كتبها أب لابنته: "حبيبتي، لو وصلتك هالورقة، اعرفي إني ما خفت، بس كنت أضعف من أن أقاوم. سامحيني لأنني ما قدرت أطعميك، ولا أجيبك الدفا. بحبك".
وجدتها البنت بين دفاتر قديمة بعد أن هدا القصف. جلست في الزاوية، وقرأت، ثم قالت: "كنت تعرف تحب، بس الحرب ما كانت تعرف ترحم".

تمت

لعبة تحت الأنقاض

حضر الأطفال نفقاً بين خيمتين، سمّوه "المخبأ السريّ".
قالوا لبعض: "لو إجا القصف، بنروح عليه".
في يوم ما، قُصفت المنطقة. ذهب الأطفال إلى النفق.
لم يخرجوا.
أُغلق النفق عليهم، وصار قبراً جماعياً.

تمت

الميكروفون

جاءت عربية إغاثة. تدافع الناس، حمل أحدهم ميكروفوناً وصاح: "دور!
دور! بالهدوء كلّكم بتأخذوا!"
لكن الخبز انتهى بعد عشر دقائق. وبدأ العراقي.
سقط أربعة جرحى. طفل أصيب بسكين. امرأة فقدت وعيها.
عاد حامل الميكروفون، وقال: "ما حدا بسمع، الكل بصرخ، بس ما حدا
بسمع".
وترك الميكروفون مكسوراً فوق الصندوق الفارغ.

تمت

صوت لا يسمعه أحد

مؤمن، الطفل الذي أمسى أصماً جراء صوت انفجار عنيف، كان يجلس في حضن جدته منذ أيام لا تعد. لم يفهم لماذا تغير كل شيء فجأة. لم يسمع صوت الصواريخ، ولا صراخ الناس، فقط يرى أفواههم وهي تفتح وتغلق بلا معنى.

وحين وقعت القذيفة قرب الخيمة، ارتجّ جسده، لكنه لم يصرخ. فقط فتح فمه على اتساعه، وظل ينظر في عيون جدته. قالت له بدموعها: "لو كنت سامع، كنت خفت. بس انت يا مؤمن، قلبك اللي سامع، وقلبي اللي مكسور". ماتت الجدة. وظل مؤمن يضحك، يظن أنها نائمة.

تمت

جواز سفر محترق

في كومة رماد كانت بيتاً، عثر أنس على جواز سفره. احترق نصفه، وبقيت الصفحة التي تحمل صورته.

ضحك، وقال لأخيه: "يعني لو طلعلنا، مين حيعرفنا؟" قال له أخوه: "ما بدنا نساfer، بدنا نرجع عالدار". رد أنس: "أي دار؟ هاي؟" وأشار إلى الرماد.

ثم مشيا، يفتشان عن بيت لا يشتعل حين ينام صاحبه.

تمت

ساعة لا تتوقف

منذ استشهد زوجها، كانت ندى تنظر إلى ساعته. ظلت تعمل. لم تتوقف. حتى حين فقد الزمن، كانت عقاربها تتحرك. قالت: "حتى الساعة عندها شرف الوقت". علّقتها على جدار خيمتها، وكل يوم تنظر إليها وتقول: "هو كان يلبسها وهو راجع من الشغل... وهو بيدفع الباب ويحكي: جبتكم خبز". وفي الليل، توقفت الساعة. في الدقيقة التي جاء فيها الخبر: مات ابنها الصغير.

تمت

نداء في مكبر صوت

جال رجال الدفاع المدني بين الحارات ينادون: "اللي عنده ناجين تحت الركام ييلغنا!" ركض إليهم صبي وقال: "سمعت صوت بنت بتبكي في بيت جيراننا". ذهبوا، وحفروا، ووجدوا البنت. كانت حية، تحت حائط منهار، وقد كتبت على الجدار بدمها: "أنا هان، ساعدوني". قال أحد المنقذين: "لو تأخرنا ساعة، كانت راحت". قالت البنت بصوت مبجوح: "كنت بأعدّ الساعات... وبطلت أعدّ".

تمت

رسام الفحم

لم يبقَ معه ألوان. كان عدنان يرسم بالفحم على الجدران، وجوه الذين فقدهم.

رسم أمه وهي تضحك، وأخاه وهو نائم، وجارته وهي توزع خبزاً. رسم طفلاً يحمل ماءً، ورجلاً يصرخ.

وحين رأى الناس ما يفعل، بدأوا يكتبون أسماء موتاهم تحت الرسومات. في المساء، جاءه شاب وقال: "ارسملي وجه أختي. ما عندي إلا صورتها في الذاكرة".

قال عدنان: "هات قلبك، أرسم منه".

تمت

معجون أسنان للغداء

فتح الطفل الأنبوب، وضغط قليلاً منه على إصبعه، ثم لحسه.

قالت أمه: "شو بتعمل؟"

قال: "بسكر جوعي".

سكتت. لم تقل له أن الأنبوب نفسه شاركها به أبوه قبل يومين.

ثم كتبت على الحائط: "هذا بيت، مش خزانة إسعافات. كنا نعيش، واليوم ننجو فقط".

تمت

عروس مؤجلة

كانت دعوة الزفاف مطبوعة، وفستان العرس معلق خلف الباب.
لكن الحرب بدأت قبل أسبوع من الموعد.
قالت دلال لخطيبها عبر رسالة صوتية: "إذا بتخلص الحرب، بنتجوز حتى
فوق الركام".
لكنه استشهد.

في اليوم الذي أعلنت فيه هدنة مؤقتة، لبست الفستان، ووقفت أمام
المرأة، وقالت: "أنا مش أرملة، أنا عروس الشهيد".

تمت

صوت المؤذن

ظل يصيح رغم كل شيء. في حي الشابورة، كان المؤذن الأعمى يصعد
المئذنة كل فجر، وينادي للصلاة.
قال له أحدهم: "ما حد بيصلي، الكل نايم جوعان".
قال: "أنا ما بنادي للناس، بنادي للرب يسمعنا".
في ليلة قُصفت المئذنة. مات المؤذن.
لكن صوته بقي مسجلاً في إذاعة محلية، يسمعه الآن قبل كل خبر
عاجل.

تمت

النافذة الوحيدة

في مدرسة النروح، كانت هناك نافذة واحدة تطل على بقايا شجرة برتقال.

كان الناس يتناوبون على الوقوف عندها، يشمون الهواء، ويرون شيئاً أخضر.

قال طفل: "هاي الشجرة بتذكرني أنه في إشي ممكن يرجع".
في اليوم التالي، قطع أحدهم الغصن ليطبخ عليه.
بكى الطفل. وقال: "قتلوا نافذتي".

تمت

الحذاء الأزرق

وجده أحدهم في ساحة قصف. حذاء طفل صغير، أزرق اللون، وعليه صورة دب صغير.

ظل ملقى بين الحجارة، لا أحد اقترب منه.

كل من رآه، أشاح وجهه. كان كافياً ليتكلم عن كل المجازر.

وفي نشرة المساء، ظهرت صورته على الشاشة، كأنها شاهد قبر لمدينة بأكملها.

تمت

باب مغلق

أم حسام كانت كل ليلة تغلق باب الخيمة بحجر كبير. ليس خوفاً من لص، فكل شيء مسروق سلفاً، بل خوفاً من الزمن أن يدخل. قالت لابنتها: "الليل طويل، والحرب ما عندها باب". في الصباح، كانت الخيمة ممزقة، والباب مفتوح، والحجر مكسور. وحدها الوردة المرسومة على جدار الكرتون بقيت سليمة.

تمت

الصرخة المكتومة

في أقصى المدرسة، كانت هناك فتاة لا تتكلم. منذ القصف الأخير، وهي تضع يدها على فمها، وترفض الكلام. جربوا معها كل شيء. الحليب، الألعاب، الدعاء. لكنها لم تنطق. في إحدى الليالي، كتبت على الأرض: "صرخت، وما سمعني حدا". ثم نامت، ولم تستيقظ.

تمت

لوحة على الطريق

كان الطريق إلى الجنوب محفوظاً بكل شيء إلا الحياة. ومع ذلك، رسم أحدهم لوحة كرتونية على جانبه.
كتب فيها: "أهلاً بكم في غزة الجديدة: بلا بيت، بلا ماء، بلا خبز، لكن فيها كرامة".
مرّ بها آلاف. بعضهم ضحك، بعضهم بكى، وبعضهم مزّقها.
لكن كلهم عرفوا: الكرامة وحدها لا تكفي.

تمت

كيس نايلون

كان يلّمّ فيه كل ما تبقى: صور، هوية، شهادة وفاة، رغيف يابس، وصابونة.
قال لجاره: "لو قصفونا، هذا كل اللي بدي آخذه معي".
وحين جاء القصف، لم يجدوا جثته .
فقط الكيس .
مغلقاً بإحكام، وداخله صورة فتاة صغيرة تبسم.

تمت

مصباح في الليل

كل المخيم في ظلام دامس، إلا خيمة واحدة مضيئة.
قال الناس: "معهم مولد؟"
دخلوا، فوجدوا عجوزاً تشعل شمعة صغيرة، وتحكي قصصاً لأطفال
الخيمة.
قالت لهم: "الضوء مش بس كهربا، الضوء حكاية".
وبقيت الشمعة تشتعل حتى نام الجميع.

تمت

البنات التي نسيت اسمها

سألوها: "شو اسمك؟"
سكتت.
قالت المريضة: "انضربت بشدة، فقدت الذاكرة".
لكنها همست لاحقاً: "أنا بتذكر كل إشي... بس اسمي راح مع بيتنا".

تمت

مهنة جديدة

كان يبيع الذهب. واليوم، يبيع الخبز.
قال له ابنه: "كنت غني".
أجابه: "والآن أنا حي. وهاي المهنة أشرف من تجارة الدم".
ثم مضى يصرخ في السوق: "رغيف بنص دعاء، ومية بحبة رحمة".

تمت

أغنية مشوشة

كانت أم رامي تغني لابنها ليرضى أن ينام، رغم صوت الطائرات.
"نام يا حبيبي نام، الجوع حرام..."
لكن صوت الطائرة غطى على الغناء.
قال ابنها: "ماما، غني بصوت أعلى".
فقالت: "الغنا مش أعلى من الموت".

تمت



ظل الشجرة

لم يبقَ من الشجرة سوى ظلها على الجدار.
وكان الناس يجتمعون في هذا الظل كل صباح، وكأنه سوق مركزي.
قالت امرأة: "كان فيها طير، وكان فيها خُضار".
قال رجل: "الآن فيها ذكرى، وريح رماد".

تمت

الطريق إلى الغائبين

على لائحة داخل مسجد مهدم، كتب أحدهم أسماء مفقودين.
كل يوم يزيد عليها اسم جديد.
وفي يوم جمعة، كتب طفل بخط مائل: "أنا كمان ضيعت أبوي. اسمه عادل".
وقف الناس، ينظرون إلى الاسم، ولم يعرفوا من يواسون أولاً: الغائب، أم من بقي يبحث.

تمت

دمعٌ لا يجف

منذ أربعة أيام لم تتوقف حليلة عن البكاء. لا تصرخ، لا تتكلم، لا تشتم ولا تلعن. فقط تبكي. من خيمتها الممزقة في مركز الإيواء جنوب رفح، كانت تجلس كل صباح أمام قطعة قماش ملفوفة حول شيء بحجم الرضيع.

سألتها جارتها: "مين هذا؟"

قالت: "ابني".

لكن الرائحة صارت لا تُحتمل، والجسد الصغير لم يُدفن. لم يكن في المكان تراب كافٍ، ولا حتى كيس نايلون. كانت حليلة تخشى أن يدفنوه دون إذنها، أو يتركوها بلا شيء تلمسه.

قالت وهي تلمس الجسد الصغير: "كل العالم بيتكلم عن وقف إطلاق النار، بس ابني انطفى.. وما حدا سأل إذا ضويت له شمعة".

اقترب منها متطوع، حاول أخذ اللقافة، فصرخت: "ما في هدنة لقلبي.. خلّوه معي".

ذلك المساء، خفت صراخها. لم تعد تبكي. فقط نامت على الأرض بجانب ابنها. في الصباح، لم تستيقظ.

تمت

ضوء في منتصف النفق

في شبكة الأنفاق التي كان يستخدمها رجال الإسعاف لنقل المصابين سرّاً بين المناطق المحاصرة، كانت هناك لحظة نادرة للدهشة.

فبين أنفاس الظلمة، وضيق الهواء، وسعال الجرحى، ونداءات اللاسلكي، شُعل ضوء صغير. لم يكن كهرباء. كان مصباحاً يدوياً قديماً، يرفرف كأنه يشعل الروح.

كان فؤاد، المسعف العجوز، يحمل المصباح في فمه، بينما يجرّ عربة مصاب ينزف بشدة. لم يكن لديه نقالة، ولا أكسجين، ولا حتى ضمادة. قال وهو يلهث: "إذا وصلّت هذا الولد عالطرف الثاني.. يمكن يعيش. إذا ما وصل.. يمكن نعيش نحنا عالقليل بكرامة".

على الطرف الآخر من النفق، كان شاب ينتظر، يحمل قنينة ماء وغطاءً صغيراً.

قال له: "الولد مات؟"

أجابه فؤاد: "ما بموت اللي فيه ضوء، والموت مش نفق، هو نهاية الحكي بس".

ووضع الجثة بهدوء على الأرض، ثم جلس يشرب قليلاً، ثم أطفأ المصباح.

تمت

شباك لم يُخلق

في أحد الأبراج المهدمة على أطراف غزة، بقي شباك حديدي مفتوحًا، رغم أن كل شيء حوله تهدّم. لم يكن نافذة فقط، بل كان نافذة على الماضي.

كانت امرأة خمسينية تأتي كل فجر، تجلس على كرسي بلا أرجل أمام الركام، وتنتظر نحو الشباك. هي لا ترى إلا الهواء، لكنه بالنسبة لها، يُخرج حكايات.

قالت لأحد المارة: "أنا كنت أفتح هالشباك عشان أشم ريحة البحر، واسمع صوت أولادي وهم بيركضوا للمدرسة".

ثم أكملت، وكأنها تحدث الشباك: "مرّ يوم قصفونا، وأولادي كانوا جوه. ما رجع منهم إلا الملابس".

الشباك، رغم الغبار، ظل مفتوحًا.

وحين جاء مهندس إعادة الإعمار المؤقت، قال لها: "بدنا نهدم كل اشي ضايل".

فصرخت: "اهدموا كل شي، بس خلوا الشباك.. هذا شباك ابني".

تمت

ثلاث طرققات على الباب

كان الصوت يأتي كل ليلة. ثلاث طرققات خفيفة على باب الخيمة. ظننت الأم أنه حلم، لكن ابنها الأصغر قال: "أنا كمان سمعتها".

في اليوم الثالث، تشجعت وخرجت، فلم تجد أحدًا.

لكنها رأت كيسًا صغيرًا على الأرض: فيه رغيفان وقطعة شوكولاتة.

كل ليلة بعد ذلك، جاءت الطرققات، وكل مرة، وُجد كيس جديد.

قال الناس: "فيه حدا بوزع رحمة".

في الليلة السابعة، انقطعت الطرققات.

وفي الصباح، وجدوا جثة شاب بين الخيام، في جيبه ورقة كتب فيها:

"كنت أقدر أعطي، بس ما قدرت أنقذ حالي".

تمت

لعبة الغميضة الأخيرة

قالت ميساء لأخوها الأصغر: "يلا نلعب غميضة، علشان تنسى القصف".
غطى عينيه، وبدأ العد: "واحد، اثنين، ثلاثة"...
ركضت ميساء إلى خلف الجدار، لكن القصف سبقها.
حين فتح عينيه، لم يجدها.
بحث، وركض، وصرخ: "اطلعي يا ميساء! فزت أنا!"
لكنها لم تظهر.
حتى الآن، ما زال يجلس خلف الخيمة، ويعد: "مئة وتسعة، مئة وعشرة"...

تمت

شارع بلا عنوان

كل الشوارع تغيرت. البيوت سويت بالأرض، واللافتات احترقت. صار الناس يتنقلون بالذاكرة، لا بالخريطة.

رجل مسنّ جلس على ركाम وقال: "هون بيت أبو شاكر، وبجنبه دار صبحي. وفيه زارونا أهل خانيونس يوم عرس بنتي".

مرّ شاب صغير، سأله: "هذا الشارع شو اسمه؟"

قال: "كان اسمه شارع الوحدة، بس الان هو شارع الشهداء".

ابتسم الصغير وقال: "يعني كل شوارعنا نفس الاسم؟"

رد العجوز: "آه.. كل الشوارع فيها دم".

تمت

العروس في الثلاجة

في مستشفى كمال عدوان، في زاوية من زوايا ثلاجة الموتى، كان هناك كفن أبيض بوشاح مطرز.

سألت طبيبة شابة: "ليش هاي مختلفة؟"

قال أحد المرضين: "هاي عروس. استشهدت قبل يوم عرسها بساعات. كانوا بيجهزوا لها الفستان، وهي نزلت قبرها قبله".

كتبت الطبيبة في دفترها: "ماتت عروسًا، ودفنت كما تمّت.. بالأبيض، بس مش بفستان، بكفن".

تمت

سبعة أصابع

في مشفى العودة، كان فتى مصاب يجلس وحده. يده ملفوفة.

قالت له الممرضة: "شو اسمك؟"

قال: "ما في اسم. أنا بس عندي سبع صوابع."

أزال الغلاف، فظهرت ثلاث أصابع مقطوعة.

قالت له: "شو بدك أكتب في الملف؟"

قال: "اكتبي: نجا بأقل من يد."

تمت

باب للسماء

في مخيم متراص، كان الناس يجلسون بترقب، ينتظرون شاحنة المساعدات.

وفجأة، فتحت السماء باباً من نار. صاروخ سقط وسطهم.

انهارت الخيام، تبعثرت الأجساد، وتناثرت الطحينات.

وفي السماء، ظل باب النار مفتوحاً.

لكن طفلاً صغيراً رفع عينيه، وقال: "هاي مش نار، هاي باب الجنة".

وسكت.

تمت

النازح الذي يبيع صمته

على طرف الطريق بين دير البلح وخان يونس، جلس رجل يرتدي معطفاً مهترئاً، يضع أمامه لافتة كُتِبَ عليها: "أبيع صمتي بخبز أو ماء أو حتى سيجارة".

اقترب منه أحد المتطوعين وسأله: "شو يعني تبيع صمتك؟"
أجابه الرجل دون أن يرفع عينيه: "كنت أصرخ.. وأشتم.. وألعن.. وكل ما أصرخ، بموت حدا. لما صرت ساكت، ضليت لحالي".
قال المتطوع: "بس الناس بدها تحكي، بدها تفضفض".
أجابه بصوت كأنه صفير: "الحكي غالي.. وأنا ما عاد عندي رأس أتحمّل ثمنه".

جلس بجانبه طفل صغير، وأعطاه نصف رغيف. فقال الرجل: "اشتريت دقيقة حكي. بدي أقول: كل شي مات.. إلا اللي في عيون هالولد".

تمت

خطوط حمراء على الخريطة

كانت خريطة غزة تُعرض على شاشة كبيرة في غرفة المفاوضات. دوائر، أسهم، خطوط حمراء وزرقاء، مناطق آمنة، وأخرى يُوصى بإخلائها. قال المفاوض: "نقترح إعادة تموضع للقوات في هذه النقطة خلال وقف إطلاق النار".

في ذات اللحظة، كانت أم محمد في منطقة يُقال عنها "آمنة"، تُخرج بيدين مرتجفتين جسد ابنتها من تحت خزان مياه محطم. جندي إسرائيلي في الغرفة أشار للزاوية السفلية من الشاشة وقال: "هنا ضربنا قبل ساعة، لم يكن هناك أهداف". في نفس اللحظة، في غزة، نادى أحد المسعفين: "في رضيع لسه فيه نبض!"

لكن الخريطة لم تتغير.

تمت

غطاء الرأس

سلوى، فتاة صغيرة، لم تعد تملك شيئاً من ملابسها. كانت ترتدي غطاء رأس والدتها كتنورة، وقطعة قماش كمئزر. ضحك منها صبيّ، فقالت له: "هاذ حجاب أمي، كانت تلبسه وهي بتقرأ قرآن، واليوم أنا لابسته علشان أخبّي حالي من العيون". قال لها: "ليش خايفة من العيون؟" أجابت: "لأن العيون بتحكم علينا، وبتسأل: ليش انتي هيك؟ وأنا ما عندي جواب". وفي آخر النهار، جلست قرب شجرة محترقة وقالت بصوت خافت: "هاذ الحجاب هو كل اللي ضل من أمي. يمكن لو لبسته، تحضّني شوي".

تمت

الرسالة التي لم تُفتح

أرسلها جهاد من الخيام إلى خطيبته التي نزحت إلى الجنوب، عبر صديق على دراجة هوائية.

فيها كتب: "أنا ما شبع من صوتك، بس الحرب ما استأذنت. لو التقينا بعد الهدنة، تزوجيني. ولو متت، خلّي اسمك على اسمي".

الدراجة وصلت، لكن الخيمة التي كانت فيها الفتاة ضُربت.

الرسالة بقيت في جيب صديق جهاد، الذي هو الآخر قُتل في طريق العودة.

في مشفى الأوروبي، وُجدت الرسالة، لم تُفتح. كتبت الممرضة في تقريرها: "ضاعت الكلمات بين موتين".

تمت

كتيب الإسعاف الذهني

في مركز صغير للتفريغ النفسي، أنشأ متطوعون بين الخيام، وُزع كتيب بعنوان: "الإسعاف الذهني للأطفال بعد القصف".

في الصفحة الأولى: ارسموا وجهًا مبتسمًا.

في الثانية: اكتبوا ما تحبونه.

في الثالثة: تذكروا لحظة سعيدة.

الطفلة سارة كتبت: "ما بعرف شو أحب، كل اللي كنت أحبه استشهد. ولحظة سعيدة؟ يمكن لما صرت أبكي بدون ما أخوي يشوف".

أعادت الكتيب للمشرف، وقالت: "ما في شي بنفع عقلنا، لأنه ما عاد عايش".

تمت

حوار بين قديفتين

قالت القذيفة الأولى: "أين ستهبطين؟"
قالت الثانية: "على خيمة فيها أربعة، واحد فيهم كاتب شعر".
قالت الأولى: "أما أنا، ففي ساحة مدرسة، فيها ثلاثون طفلاً، واحد منهم يرتدي كنزة كتب عليها "Peace".
قالت الثانية: "وهل عندك أي نوع من الندم؟"
قالت الأولى: "أنا لا أملك مشاعر.. أنا مصنوعة من الحديد".
وسقطتا.
أما الشاعر، فقد بقي تحت الركاب .
وجدوه لاحقاً يمسك قصاصة مدون فيها: "حين يتحدث الحديد ، نصمت نحن".

تمت

ثلاجة بلا كهرباء

في أحد الزوايا، كان هناك ثلاجة مكسورة، لا تعمل منذ بداية الحرب. فتحتها أبو نادر، وأخرج منها دفترًا.

قالت له زوجته: "لسه مخبّي فيها دفتر؟"

قال: "فيها كل اللي كتبته عن أولادي.. تاريخ ميلادهم، أول كلمة، أول مرة مرضوا.."

قالت له: "نحن ما في عنا كهربا، لا حياة، ولا عيلة.. شو بدك فيها؟"

قال: "الثلاجة صارت قبر ذاكرة.. وكل مرة بافتحها، بشم ريحتهم".

تمت

الطفلة التي تحب اللون البنفسجي

هند، خمس سنوات، لا تسأل عن شيء إلا عن اللون البنفسجي. تقول: "بدي بطانية بنفسجية، وحذاء بنفسجي، حتى السما لو صارت بنفسجية، بضحك".

في كل توزيع للمساعدات، كانت تسأل: "فيه بنفسجي؟" أخيراً، جاءها متطوع بغطاء رأس مائل للرمادي. قالت له: "مش بنفسجي".

فقال: "بس بيدفي".
قالت: "أنا ما بدي أدفي، أنا بدي أفرح شوي".

تمت

الأغنية التي لم تُعنى

كان عبد الرحمن، عازف عود، يحمل آله في كل تنقل. رغم أنه لم يعزف منذ بدأت الحرب.

قال له صديقه: "ليش بعدك شايها؟"

قال: "لو ضليت حي، أول إشي بعمله، بعزف أغنية اسمها: "نجونا، بس مش سالمين".

في أحد الأيام، جلس على ركाम بيت قديم، وبدأ يعزف. سمعه طفلان، فابتسم أحدهما. وبعد دقيقة، جاءت غارة. ظل العود على الأرض، أوتاره مقطعة.

تمت

ساعة الصمت

في تمام الساعة كل مساء، يسود صمت عجيب. لا طائرات، لا قصف، لا حركة.

قالت أم عماد: "هاي الساعة بحسها فيها شي غريب".
قال جارها: "هاي الساعة اللي بيذكروا فيها العالم يحكوا عنّا، بس ما بيحكوا".

في اليوم التالي، جاءت طائرة في الساعة السابعة تمامًا، وأسقطت صاروخًا واحدًا على خيمة في الطرف.
قالت امرأة: "حتى ساعة الصمت... صارت كذبة".

تمت

الحلم المؤجل

في إحدى زوايا خيمة مكتظة، كانت رنا، فتاة بعمر الورد، تخطط لحلم واحد: دخول كلية الطب.

رغم الدمار، كانت تحتفظ بدفتر ملاحظاتها، وتحفظ جداول الأعصاب وخرائط الجسم البشري عن ظهر قلب.

قال لها أبوها: "ليش بعدك بتدرسي؟ ما ضل لا جامعات ولا كتب".

أجابته: "بس ضايل عقل.. وطول ما عقلي شغال، أنا لسا عايشة".

ذات مساء، جلس شاب بجانبها وسألها: "بتفهمي بالجرح؟"

أشارت إلى كتفه، فتحت علبة إسعاف بسيطة، وضمدت جرحه.

قال لها: "يعني إنتي صرتي دكتورة من قبل ما تدخل الجامة".

ضحكت، ثم قالت بهمس: "الحلم الكبير... صار شقفة حلم صغير.. بس لسا شغال".

تمت

بائع الذكريات

في شارع غير ممهد وسط السوق المؤقت، جلس رجل يفرش الأرض
بصور.

صور لأشخاص، بيوت، مساجد، أفراح، مدارس... كلها بالأبيض والأسود.
سأله رجل: "شو بتبيع؟"
قال: "ذكريات".

قال آخر: "ما حد بيعتري شي قديم".
أجابه الرجل: "بس الناس هان محتاجة تتذكّر مين كانوا. لما تنمحي
الذاكرة، الحرب بتربح".

طفل صغير أخذ صورة رجل مبتسم أمام نخلة، وسأل: "هذا مين؟"
قال البائع: "هيك كان يضحك أهل غزة. خذ الصورة واعمل معها ذكرى
جديدة".

تمت

غرفة بلا سقف

في الطابق الثالث من عمارة سُويّت بالأرض جزئياً، بقيت غرفة واحدة قائمة بلا سقف.

كان فيها سرير محطم، دولاب مكسور، ومراة مشروخة. عاد صاحبها بعد أشهر من النزوح، جلس فيها، ينظر إلى السماء من فوقه.

قال: "أنا ما بدي سقف، بدي أظل أشوف السما، يمكن يوم تطل مرتي من الغيم وتقولي: اشتقتلنا".

في تلك الغرفة، ظل أسبوعاً، يكتب على الجدران أبياتاً من الذاكرة، ثم اختفى.

قال الجيران: "رجع ينام مع مرته".

تمت

صندوق الحديد

كانت العائلة تملك صندوقاً قديماً من الحديد، فيه شهادات الميلاد، جوازات السفر، أوراق الأرض، عقد زواج الجد. عند الإخلاء، نسوه. عاد الابن لاحقاً بين القصف ليأخذه، لكنه لم يجده. ففتح، وجد الحائط الذي كان الصندوق خلفه، قد ذاب بالنار. أخذ حفنة من التراب، ودفنها في علبة بلاستيكية. قال لأمه: "ما لقينا الورق، بس خبيتلك الأرض".

تمت



رسالة من تحت الطاولة

تحت طاولة الطعام في أحد الملاجئ، وجد طفل صغير ورقة صغيرة.
قرأها بصوت مرتجف: "أنا اسمي مجد، عمري 9 سنين، إذا قرئت
رسالتي، قولوا لماما إني كنت خايف، بس كنت شجاع كمان".
بدأ الجميع يسألون: "مين مجد؟ وين أهله؟"
لم يعرف أحد.
بعد يومين، جاء رجل مسن يبحث عن ولد، وحين قرأ الورقة، بكى، وقال:
"كان بيكتب رسائل دايماً.. هاي خطه".
لكن مجد لم يعد.

تمت

بقايا مدرسة

كانت ساحة المدرسة مليئة بالتراب، الكراسي مقلوبة، والسبورة مشروخة. ومع ذلك، في كل صباح، كانت مجموعة من الأطفال تجلس هناك، تنتظر معلّمة لا تأتي.

قال أحدهم: "إذا أجت، أنا حافظ الدرس." وقالت أخرى: "أنا جبت دفترى".

مرّت امرأة، وجلست معهم.

قالوا لها: "إنّتي معلّمتنا؟"

أجابت والدمعة في عينيها: "اليوم رح أعلمكم شي جديد: كيف نحكي عن ألّنا، ونخليه ما يكسّرنا".

تمت

الخوذة البيضاء

في مستودع الإسعاف، وُجدت خوذة بيضاء محترقة، عليها بقعة دم وعبارة مكتوبة بخط اليد: "رجعني إذا ما قدرت أنقذ".
قال زميله: "هاي لخالد، كان أول من يدخل الركاب".
في كل مهمة جديدة، كان أحد المسعفين يضع الخوذة فوق رأسه.
قال: "هي ثقيلة.. بس بتحميني من الخوف".
وصاروا يتناوبون عليها، كل من يلبسها، يعرف أنه يحمل وصية.

تمت

ساعة تحت الانقراض

في عملية بحث تحت بيت مهدوم، سمعوا صوت طنين.
اقتربوا، فوجدوا ساعة رقمية تعمل. كانت متوقفة على الساعة 4:13.
حضرها بجانبها، فوجدوا يدًا صغيرة. طفلة كانت تحمل الساعة كهدية عيد ميلاد.
قال رجل الإنقاذ: "هاي الساعة شهدت آخر لحظة. ما وقفت، بس حكتنا عن الوقت اللي انطفى فيه كل شي".
أخذها ووضعها في صندوق خاص كتب عليه: "ذاكرة غير قابلة للكسر".

تمت

حبل الغسيل

على سطح مبنى نصف مدمر، كان حبل غسيل يلوّح في الهواء.
علّقت عليه امرأة قطعة قماش بيضاء، كتبت عليها: "لَسّا في ناس هون.
لا تقصفوا".

لكن الطائرات لا تقرأ.
في اليوم التالي، قُصف السطح.
سقطت المرأة، وبقي الحبل، تتأرجح عليه القطعة البيضاء كأنها راية
استسلام.

تمت

السقف الأزرق

من بين كل الخيام، تميزت خيمة واحدة بسقف أزرق.
صنعه صاحبها من أغشية بلاستيكية مزخرفة.
قال: "الأزرق بيوهمني بالسماء، وأنا بدي أولادي يحسوا إنو فوقهم شي
حلو".

مرّت طفلة وسألته: "ممکن أناام تحت خيمتك؟ خيمتنا سودة".
أجابها: "خيمتي ما فيها مكان، بس قلبي فيه. تعي".

وفي الليل، نام عشرون طفلاً تحت السقف الأزرق. وظل الرجل ساهراً، يراقب النجوم، ويقول: "الحرب ما بتأخذ كل شي.. طالما بقي هنالك خيط ضوء".

تمت

صلاة دون اتجاه

عند الزاوية الجنوبية من المخيم، جلس الشيخ فؤاد على حجر مائل، يضع أمامه سجادته المهترئة.

سأله أحدهم: "وين القبلة؟ كل إشي تدمر".

قال الشيخ: "الله مش محتاج بوصلة. نويت، وقلبي قال: هان".

صلّى، والناس من حوله كانوا ينظرون بدهشة. رجل فقد بيته وأهله، ويصلي باتجاه لا يعرفه.

بعد الصلاة، قال: "أنا مش متأكد وين اتجاه مكة، بس متأكد إنو قلبي مش منحرف".

وفي المساء، تبعه عشرة رجال وأدّوا الصلاة معه.

وفي اليوم التالي، صلّى عشرون.

قال الشيخ وهو يبتسم: "الحرب كسّرت البنايات، بس مش الأرواح".

تمت

الشاي المرّ

كان أبو عزيز يغلي الشاي في علبة سردين فارغة، يسكب القليل في أكواب بلاستيكية مقطوعة.

قال له أحدهم: "ليش بتشرب شاي؟ ما ضل لا سكر ولا ننعن".
قال: "أنا بشرب الطعم، مش المكونات. الشاي المرّ أحسن من الحياة المرة بلا طقوس".

جلس حوله شباب، وسألوه: "احكيلنا حكاية".
فقال: "مرة، كان فينا أمل..". وسكت.
ثم رفع الكوب وقال: "للأمل، حتى لو صاير مر".

تمت

آخر صورة

في هاتف محمول مكسور، وُجدت صورة لطفلة تبتسم بجانب شجرة زيتون.

في خلفية الصورة، تظهر أمها وهي تلوّح بيدها.
الهاتف وُجد تحت أنقاض البيت.
قال أحدهم: "الصورة هاي بتسوى ألف وثيقة، لأنها بتقول: كنا نعيش".
تم طباعة الصورة وتوزيعها في المخيم، وأصبحت رمزاً صغيراً للأمل.

وفي كل مرة يتجمع الناس، كانوا يرفعون الصورة ويقولون: "لَسَّا عنا
حكايات بتضحك، حتى لو آخرها بكاء".

تمت

كتاب مشطوب

كان سامي يحمل كتاباً قديماً في حقيبة من قماش.
قال له صديقه: "شو بتحمل، وأنت مش لاقى خبزة؟"
أجاب: "هذا كتاب تاريخ.. كل صفحة فيه عن فلسطين. لو راح كل شي،
بنظل نعرف مين احنا".
ذات ليلة، فتّشهم جندي على الحاجز المؤقت، أخذ الكتاب، وبدأ يشطب
بأقلام حمراء على الجمل.
قال: "هاي أكاذيب".
رد سامي: "يمكن، بس هي أكاذيبنا، مش تبعتكم".
واستعاد الكتاب، ومضى.

تمت

قهوة من رماد

صنع أبو أديب قهوته من قشر الباذنجان المحروق.
قال لزوجته: "ريحة القهوة هي الوهم الوحيد اللي بعده بيخدع عقلي".
جلس أصدقاؤه يشربونها معه، وكل واحد كان يغمض عينيه ويتخيل بيتاً.
قال أحدهم: "هاي مش قهوة، هاي زيارة لذاكرتي".
ضحك أبو أديب، ثم قال: "لما نرجع بيوتنا، راح أعمل قهوة حقيقية..
للناس اللي ظلت بشر".

تمت

موت فوق الركाम

على سطح منزل مدمر جزئياً، جلس يوسف ينظر إلى الأفق.
قال له جاره: "انزل، المكان خطر".
قال يوسف: "أنا بدي أموت، بس بدي أختار وين".
ظلّ جالساً هناك ثلاثة أيام، لا يتحرك، لا يأكل.
في اليوم الرابع، نزل وقال: "ما قدرت أموت فوق الركام، لأن الحياة
نفسها طلعت أقسى من الموت".

تمت

طفلة تحرس الحلم

هدى، ست سنوات، كانت تجلس كل ليلة بجانب أخيها الأصغر، تحكي له قصة.

قالت له: "في مرة كان في بيت كبير، فيه ألعاب وحلوى وكنبة خضراء".
قال: "وين صار البيت؟"

قالت: "طار مع الطيارة. بس أنا حفظته جوه راسي".
سألها: "وإذا نسيته؟"

قالت: "ما بنسى، لأنه إذا نسيته.. راح نختفي".

تمت

جريدة من تحت الركाम

في مكتبة صغيرة تهدمت، بقيت صحيفة واحدة تحت الأنقاض.

انتشلها فتى، قرأ العنوان: "غزة تحت النار".

قال: "لسا بنكتب عنّا، ولسا اللي برا بيقرأوا".

علّق الجريدة على خشبة محترقة، وصار كل يوم يكتب عليها بقلم فحم:
"اليوم... لسا عايشين".

تمت

حائط الأمنيات

على سور مدرسة محطمة، بدأ الأطفال يكتبون بأقلامهم ما يتمنون.
"بدي آيس كريم".

"بدي أرجع مدرستي".

"بدي أختي ترجع".

بمرور الوقت، امتلأ الحائط بالكلمات.

وجاء أحد الضباط الإسرائيليين، قرأ، ثم أدار ظهره.

قال طفل: "هو ما فهم، لأن الأمنية مش لإله. الأمنية إلنا".

تمت

سما بلا نجوم

في المساء، جلسوا ينظرون إلى السماء.

قالت الجدة: "وين النجوم؟ زمان كانت تملأ السما".

قال حفيدها: "النجوم صارت تخاف تنزل علينا".

ضحك الآخر: "يمكن الطيارات أكلتها".

ثم سكتوا جميعاً.

وفي صمت الليل، قال أحدهم: "بس لما نرجع على بيوتنا، راح نعدّ النجوم

ونكتب أسماء الشهداء عليها".

تمت

النشيد الأخير

في ساحة مدرسة مهدمة تحولت إلى مأوى للنازحين، وقف طفل يُدعى يوسف على صندوق خشبي مقلوب، وبدأ يغني.
كان صوته ضعيفاً، متردداً، لكنه نقيٌّ بشكل يُرعب.
غنّى: "فلسطين بلادي، بلاد الجدود"...
قطع الأغنية صوت انفجار قريب.
سقط الجميع أرضاً، إلا يوسف. ظل واقفاً. قال: "أنا صوت، مش جسد.
والصوت ما ويموت".
ومن يومها، صاروا يلقبونه: المنشد الأخير.

تمت

أغصان ميتة

كانت أم نزار تحاول غرس أغصان زيتون يابسة في التراب الرمادي.
ضحك منها جيرانها: "هاي ميتة، ما راح تطلع".
قالت: "أنا ما بزرع شجر، أنا بزرع ذكري. كل غصن من هدول كان
جنب شاببيكي".
في المساء، جاءت بنت صغيرة، وسقتها بماء من قارورة فارغة تقريباً.
قالت الأم: "كل ما حد سقا، بتعيش الفكرة أكثر".

تمت

الراديو القديم

في ملجأ صغير، يشغل راديو قديم كل مساء بدور البطارية الوحيدة المتبقية.

قال الرجل الذي يشغله: "بسمع فيه العالم... عشان أعرف شو بيقلوا عنا".

ذات ليلة، صمت المذيع، ثم قال بصوت متردد: "الأنباء تفيد بأن هناك تقدماً في المفاوضات..."

سُمع همس في الملجأ: "بلكي وقفوا. بلكي خلصنا".

لكن بعد خمس دقائق، دوى انفجار كبير في الجوار.

قالت امرأة وهي تهز رأسها: "الراديو بيحكي سياسة، بس الصاروخ بيحكي الحقيقة".

تمت

بطاقة هوية محترقة

على جانب الطريق، وُجدت بطاقة هوية نصفها محترق. الاسم غير واضح.

قال رجل إسعاف: "مين هاي؟"

قال صديقه: "ما بنعرف، بس كلنا نفس المصير".

في اليوم التالي، نُظمت جنازة رمزية للبطاقة.

وكتب أحدهم على شاهد مؤقت: "لكل من لا نعرف اسمهم، لكن عرفنا دمهم".

تمت

خريطة الأطفال

في زاوية من الخيمة، رسم طفل خريطة لقطاع غزة. لكنها لم تكن مثل الخرائط العادية. كتب على المنطقة الشمالية: "هون بيتنا". وعلى الوسطى: "هون ركضنا لننجو". وعلى الجنوب: "هون ما حدا عرفنا". قالت أمه: "ليش ما رسمتها بالألوان؟" قال: "ما في لون للجوع".

تمت

ساعة ما بعد الهدنة

في اليوم الذي أُعلن فيه عن وقف إطلاق النار، لم يُطلق أحد الزغاريد، ولم ترفرف رايات.

الجميع جلسوا صامتين.

قال أبو هشام: "وقفوا القصف؟ ولا وقفوا العد؟"

قالت أم فاطمة: "اللي راحوا ما يرجعوا، واللي ضلوا مش ضامين ساعة".

ثم خرج صوت المذياع: "تدخل الهدنة حيّز التنفيذ الآن".

فانطلقت صفارة سيارة إسعاف... وقال أحدهم: "أول كذبة في الهدنة".

تمت

الحبر الأخير

جلست لى، الطالبة السابقة في كلية الإعلام، تكتب على دفتر ممزق، بآخر قلم حبر تملكه.

كتبت: "هذه شهادتي. أنا لم أمت، لكن كل شيء فيّ مات".

قال لها شقيقها: "ليش بتكتبي؟ مين رح يقرأ؟"

قالت: "أنا بكتب علشان لو عشت، أقول إني كنت عايشة. ولو مت، يعرفوا إني كنت قادرة أقول".

تمت

شجرة التين

على تلة رمادية، نبتت شجرة تين من بين الركام.
قال الصبي: "ما زرعها أي شي، طلعت لحالها".
قالت جدته: "يمكن في شهيد كان حامل بذرة بجيتو، ونبتت".
ومنذ ذلك اليوم، صارت العائلات تضع أحجاراً حول الشجرة.
قال أحدهم: "نخلّيها مزار. هي بتشهد إنه في شي بعد الموت".

تمت

الحقيبة السوداء

عثروا عليها في الطريق بين خزاعة ورفح. حقيبة سوداء بلا اسم.
في داخلها: ملابس أطفال، صورة قديمة لعروسين، كتاب رياضيات،
وحذاء نسائي.
قال السائق: "هاي حقيبة عيلة كاملة".
ووضعت في خيمة بانتظار من يتعرف.
مرت الأيام، ولم يأت أحد.
فكتبوا عليها: "حقيبة وطن".

تمت

النفس الأخير

في زقاق ضيق بين حاويتين، اختبأت فتاة صغيرة مع شقيقها الرضيع.
كان القصف قد توقف منذ نصف ساعة، لكن الطائرات لا تزال تحوم.
همست: "ضل معنا نفس واحد، بس لازم ننجو".
ضمت أياها، وغطته بجسدها، وأغمضت عينيها.
مرت دقائق... وساعات...
وحين دخل المسعفون، وجدوا الفتاة جثة هامدة، والرضيع حيًا.
كان يتنفس.

خاتمة

لم تنته الحرب، ولم يأتِ العدل، لكن بقي في الأرض من يروي
الحكايات.
حكايات لا تُقرأ فقط، بل تُبكي.
وتظل غزة، رغم الخراب، تتنفس بألف قصة.
النفس الأخير... هو أول فصل في الحياة القادمة.

تمت

فهرس

حوار بين قديفتين

- 1-رأسه بيت للناموس.....07
- 2-معجزة في زمن الحرب.....21
- 3-لم ينتظرنى أحد.....35
- 4-الحمالة الأخيرة 48
- 5-طوق موسى.....63
- 6-ليلة الدجاج المنتظر.....75
- 7-ولادة جيل بلا وجه.....86
- 8-نتقاسم الألم.....88
- 9-ليتنى أعود.....90
- 10-لا ترجع يا عمي... ..92
- 11-عودة إلى العصافير.....93
- 12-عادوا... ولكن.....96
- 13-ساحة لا تعرف الرحمة.....98
- 14-حين بُتر الجشع.....101
- 15-العودة الأخيرة.....104
- 16-الطريق إلى المذبح.....105
- 17-أبناء الجوع.....108
- 18-نقود لا تصلح للنجاة.....110
- 19-قهوة بلا قهوة.....114

117	20-الوجوه الهائلة.....
121	21-صفير فوق الرأس.....
128	22-أصابع من سكر.....
131	23-أكياس الماء.....
134	24-الطاحونة السوداء.....
137	25-المتفرجون.....
142	26-رحلة إلى آخر الطريق.....
146	27-سكر الحياة.....
151	28-مرايا المخيم.....
156	29-مراكز الموت.....
162	30-العرش الأبيض.....
164	31-هل وصل الماء؟.....
166	32-لا باب لي.....
168	33-حكاية نعل.....
172	34-ماءٌ على صفيح الانتظار.....
176	35-فلاقل على التطبيق البنكي.....
178	36-قبل أن ينخفض الدخان.....
180	37-صفقة تحت النار.....
181	38-بيضة بثلاثين شيكل.....
182	39-المنطقة الإنسانية.....
183	40-تحت علم أبيض.....
184	41-الشهيد الذي عاد.....
185	42-رسالة لم تصل.....

186.....	43-تسعة أرغفة وسكين.....
187.....	44-راديو فوق الركام.....
189.....	45-حلم مؤجل.....
190.....	46-بث حي من الجحيم.....
191.....	47-ثلاث ثوانٍ وبيت.....
192.....	48-خدعة الصليب الأحمر.....
193.....	49-درس في الرياضيات.....
194.....	50-الجثة المتروكة.....
195.....	51-رجل يحضر بيديه.....
196.....	52-هدنة على الورق.....
196.....	53-البنث والبالون.....
197.....	54-مرايا مشروخة.....
197.....	55-الهاتف المشغول.....
198.....	56-السكين والعدسة.....
198.....	57-شهادة ميلاد.....
199.....	58-عبوة الحليب.....
199.....	59-شاحن مهترئ.....
200.....	60-اسم على الجدار.....
200.....	61-صمت الرجال.....
201.....	62-رحلة تحت النار.....
201.....	63-الرسالة الأخيرة.....
202.....	64-لعبة تحت الأنقاض.....

202.....	65-الميكروفون
203.....	66-صوت لا يسمعه أحد
203.....	67-جواز سفر محترق
204.....	68-ساعة لا تتوقف
204.....	69-نداء في مكبر صوت
205.....	70-رسام الفحم
205.....	71-معجون أسنان للغداء
206.....	72-عروس مؤجلة
206.....	73-صوت المؤذن
207.....	74-النافذة الوحيدة
207.....	75-الحذاء الأزرق
208.....	76-باب مغلق
208.....	77-الصرخة المكتومة
209.....	78-لوحة على الطريق
209.....	79-كيس نايلون
210.....	80-مصباح في الليل
210.....	81-البنيت التي نسيت اسمها
211.....	82-مهنة جديدة
211.....	83-أغنية مشوشة
213.....	84-ظل الشجرة
213.....	85-الطريق إلى الغائبين
214.....	86-دمعٌ لا يجف
215.....	87-ضوء في منتصف النفق

88-شباك لم يُعلق.....	216.
89-ثلاث طرقات على الباب.....	217.
90-لعبة الغميضة الأخيرة.....	218.
91-شارع بلا عنوان.....	219.
92-العروس في الثلاجة.....	219.
93-سبعة أصابع.....	220.
94-باب للسماء.....	220.
95-النازح الذي يبيع صمته.....	221.
96-خطوط حمراء على الخريطة.....	222.
97-غطاء الرأس.....	223.
98-الرسالة التي لم تُفتح.....	224.
99-كتيب الإسعاف الذهني.....	225.
100-حوار بين قذيفتين.....	226.
101-ثلاجة بلا كهرباء.....	227.
102-الطفلة التي تحب اللون البنفسجي.....	228.
103-الأغنية التي لم تُغنى.....	229.
104-ساعة الصمت.....	230.
105-الحلم المؤجل.....	231.
106-بائع الذكريات.....	232.
107-غرفة بلا سقف.....	233.
108-صندوق الحديد.....	234.
109-رسالة من تحت الطاولة.....	236.

110-	بقايا مدرسة.....	237
111-	الخوذة البيضاء.....	238
112-	ساعة تحت الأنقاض.....	238
113-	حبل الغسيل.....	239
114-	السقف الأزرق.....	239
115-	صلاة دون اتجاه.....	240
116-	الشاي المر.....	241
117-	آخر صورة.....	241
118-	كتاب مشطوب.....	242
119-	قهوة من رماد.....	243
120-	موت فوق الركام.....	243
121-	طفلة تحرس الحلم.....	244
122-	جريدة من تحت الركام.....	244
123-	حائط الأمنيات.....	245
124-	سماء بلا نجوم.....	245
125-	النشيد الأخير.....	246
126-	أغصان ميتة.....	246
127-	الراديو القديم.....	247
128-	بطاقة هوية محترقة.....	247
129-	خريطة الأطفال.....	248
130-	ساعة ما بعد الهدنة.....	249
131-	الحبر الأخير.....	249
132-	شجرة التين.....	250

133-الحقيية السوداء.....250.

134-النفس الأخير.....251.